كيف نتعامل مع القرآن

إنَّ الرسول الكريم محمد صلّى الله عليه وسلّم نبّه الأمّة في حديثه الشريف إلى حقيقة هامّة قد تجاهلها، أو على الأصحّ نسيها المسلمون في عصورهم الأخيرة، فعصفت بهم الرياح، وذهبوا كل مذهب، فعليهم والحالة هذه أن يثوبوا إلى رشدهم، ويعملوا بما أوصاهم رسولهم الكريم صلّى الله عليه وسلّم، حيث قال: (تَرَكْتُ فيكُمْ أمْرَيْنِ لَنْ تَضِلُّوا ما تَمَسَّكْتُمْ بهما، كِتابَ اللهِ وَسُنَّةَ نَبيِّهِ.)[٣٠]

وعن عَوْف بن مالك الأشجعي قال: خرج إلينا رسول الله صلّى الله عليه وسلّم بالهاجِرة (عند الظُّهر) وهو مرعوب، فقال: (أَطِيعُونِي ما كُنْتُ بَيْنَ ظَهْرانَيْكُمْ! وَعَلَيْكُمْ بِكِتابِ اللهِ! أحِلُّوا حَلالَهُ، وَحَرِّمُوا حَرَامَهُ!)[٣١]

والتمسّك بكتاب الله سبحانه وتعالى يكون بتَمَثُّله في نفوسنا، وقلوبنا، وعقولنا، وجعله نبراساً لنا في حياتنا اليومية، بتحريم حرامه، وتحليل حلاله، واتّباع أوامره، واجتناب نواهيه، كما أمرنا رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، لا أن نجعل منه كتاب مناسبات نَتَغَنَّى به في المناسبات الدينية، وغير الدينية، والجنازات، والاحتفالات الرسمية فقط، لأنّ مثل هذا التَّغَنِّي لا يُفيد أحداً في حياته العملية، كما ورد في حديث رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: "قال رجل لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم: كيف نهلك ونحن نقرأ القرآن، ونقرئه أبناءنا، وأبناؤنا يقرئونه أبناءهم؟

فقال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: ثَكِلَتْكَ أُمُّكَ! أوَلَيْسَ اليَهودُ والنَّصارَى يَقْرَأونَ التَّوْراةَ والإنْجيلَ؟

٣٠- الإمام مالك، الموطّأ، حديث ١٦١٩، ص ٦٤٨.

٣١- الطبراني، مسند الشاميّين، تحقيق حمدي السلفي، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٤٠٩ه/١٩٨٩م، ج ٢، ص ١٩٢، حديث ١١٧٠.

قال: بلى، يا رسول الله!
قال: فما أغْنَى ذلِكَ عَنْهُمْ؟
قال: لا شَيْءَ يا رَسُولَ الله!"[٣٢]

ولقد بيّنتْ لنا عائشة، أمّ المؤمنين رضي الله عنها، كيف تعامل الرسول الكريم صلّى الله عليه وسلّم مع القرآن، بقولها عندما سئلت عن خُلُق رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: "كانَ خُلُقُهُ القُرْآنَ."[٣٣]
وقالت أيضاً: "كانَ قُرْآناً يَمْشِي عَلى الأرْض."

وبيّنت لنا رضي الله عنها كيف تعامل المسلمون الأوائل من جيل الصَّحابة مع القرآن بقولها: "كانَتْ تَنْزِلُ عَلَيْنا الآيَةُ في عَهْدِ رَسُولِ الله صَلّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَنَحْفَظُ حَلالَها وَحَرامَها، وَأمْرَها وَزَجْرَها، قَبْلَ أنْ نَحْفَظها."[٣٤]

وروي عن الصّحابيّ الجليل، عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، قال: "كانَ الرَّجُلُ مِنّا إذا تَعَلَّمَ عَشْرَ آياتٍ لَم يُجاوِزْهُنَّ حَتّى يَعْرِفَ مَعانِيهِنَّ، وَالعَمَلَ بِهِنَّ."

وقال أبو عبد الرحمن السلمي: "حدّثنا الذين كانوا يُقْرئوننا، أنّهم كانوا يَسْتقرئون من النبيّ صلّى الله عليه وسلّم، فكانوا إذا تعلّموا عشرَ آياتٍ لم يخلفوها حتى يعملوا بما فيها من العمل، فتعلّمنا القرآنَ والعملَ جميعاً."[٣٥]

لم يكفِ المسلمين أن هجروا القرآن، وهجروا تعاليمه السامية، بل صاروا يعارضونه ببعضه البعض، وكان الرسول الكريم محمد صلى الله عليه وسلّم قد نهى عن هذا العمل بشدة، كما روي عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله

٣٢ــ أخرجه أحمد في المسند، وابن ماجة من حديث زياد بن لبيد، ورواه الترمذي بنحوه، ورواه الدارمي من حديث أبي أمامة؛ أنظر أبا يعلى، طبقات الحنابلة، ج ١، ص ٣٧١.

٣٣ــ أبو الشيخ، أخلاق النبي صلّى اللّه عليه وسلّم، تحقيق الدكتور السيد الجميلي، الطبعة الثالثة، دار الكتاب العربي، ١٤٠٩هـ/١٩٨٩م، ص ٢٢، ٢٩

٣٤ــ ابن عبد ربه، العقد الفريد، م ٢، ص ٢٣٩.

٣٥ــ ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، دار الشعب، القاهرة، م ١، ص ١٣.

عنهما: أنّ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم خرج على قوم يتراجعون في القرآن وهو مُغْضَبٌ، فقال: (بهذا ضَلَّتِ الأُمَمُ قَبْلَكُمْ باخْتِلافِهِمْ عَلى أَنْبيائِهِمْ وَضَرْبِ الكِتابِ بَعْضَهُ بِبَعْضٍ. قال: وَإِنَّ القُرْآنَ لَمْ يَنْزِلْ لِيُكَذِّبَ بَعْضُهُ بَعْضاً، فما عَرَفْتُمْ مِنْهُ فاعْمَلُوا بِهِ، وَما تَشابَهَ عَلَيْكُمْ فآمِنُوا بِهِ.)[٣٦]

فعلى المسلمين أن يعتصموا بالقرآن، فهو حبل الله المتين، كما قال سبحانه وتعالى: (وَٱعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللهِ جَميعاً وَلا تَفَرَّقُوا، وَٱذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْداءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ، فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْواناً، وَكُنْتُمْ عَلى شَفا حُفْرَةٍ مِنَ النّارِ، فَأَنْقَذَكُمْ مِنْها، كَذلِكَ يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمْ آياتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ.) (آل عمران ١٠٣/٣)

لقد فهم الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين، أنّ (حَبْل اللهِ) هو القرآن، والهداية من الضلال تأتي عن طريقه فقط، كما روي عن الصحابيّ الجليل، عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قوله: "إنّ هذا الصِّراط مُحْتَضَرٌ يَحْضُرُهُ الشَّياطينُ، يا عَبْدَ اللهِ! هذا الطَّريقُ، هَلُمَّ إلى الطَّريق، فَعَلَيْكُمْ بالقُرْآن، فَإِنَّهُ حَبْلُ اللهِ!"[٣٧]

وعن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: "تعلّموا القرآن وٱقرأوه، إنّه كائن لكم أجراً، وكائن لكم ذُخْراً أو ذِكْراً، وكائن عليكم وزْراً. فاتْبَعوا القرآنَ ولا يَتْبَعَنَّكم، فإنّه من يَتبع القرآنَ يهجم به على رياض الجنّة، ومَنْ يتبعه القرآنُ يَزُخُّ[٣٨] في قفاهُ حتى يقذِفه في جهنّم."[٣٩]

٣٦ــ ابن الضُريس، فضائل القرآن، تحقيق غزوة بدير، دمشق، دار الفكر، ١٤٠٤هـ/١٩٨٨م، ص ١٤٩.

٣٧ــ ابن الضريس، فضائل القرآن، ص ٥٠.

٣٨ــ أي يدفعه حتى يقذف به في نار جهنّم.

٣٩ــ ابن الضريس، فضائل القرآن، ص ٤٨.

والسؤال الذي يفرض نفسه علينا الآن بعد هذا الاستعراض السريع، هو: لماذا نجح الصحابة، والتابعون، والأجيال القليلة التي تبعتهم على قلّة عددهم في إقامة الدولة الإسلامية، القوية، المؤسّسة على الإيمان والعدل، هذه الدولة التي أطاحت بأعظم دولتين في ذلك الزمن، دولة الفرس، ودولة الروم، وأنشأت دولة امتدت من الصين شرقاً إلى فرنسا غرباً، هذه الدولة التي غيّرت وجه التاريخ؟

ولماذا يفشل المسلمون على كثرة عددهم اليوم حتى في الحفاظ على أنفسهم، وأعراضهم، ودمائهم، رغم كل المحاولات، وكثرة التجمعات، والأحزاب، والمؤسسات الدينية، والسياسية، التي تحاول جاهدة النهوض بهذه الأمة، والتي أقلّ ما يقال عنها، أنّها أمّة حائرة بائرة، لا تدري ماذا يراد بها، فهي كالأغنام التي تساق إلى المسلخ، وهي تجترّ هادئة، رخيّة البال، وتذبح الواحدة تلو الأخرى، أمام ناظري جميعها، ولا واحدة منها تحاول المقاومة والتخلص من أيدي سالخيها، حتى ولا تحاول الهرب؟

الجواب على هذا السؤال هو: إنّ المسلمين الأوائل كانوا مُسْتَقْبَليين، يتطلّعون إلى المستقبل ويسيرون إلى الأمام لبناء مجتمع يقود الإنسانية جمعاء إلى ما فيه خيرها وسعادتها في الدارين.

أمّا مسلمو اليوم فهم رجعيّون ينظرون إلى الخلف إلى ماضٍ بعيد جدًا عنهم، قد تراكم عليه غبار الزمن في ظلّ ديكتاتوريات امتدّ حكمها وظلمها على مدى مئات من السنين، ومازالت تمتدّ إلى يومنا هذا. إنّ بين مسلمي العصر الحاضر وبين ماضي أسلافهم الصالحين المُشرق، سدًّا من القبور، والخرافات، والضعف، والخَوَر، أكبر من سور الصين، وأمّة هذا حالها لا تستطيع أن تدخل المستقبل، لأنّه لا يستطيع أيّ إنسان أن يسير إلى الأمام وهو ينظر إلى الخلف.

إنّ المسلمين الأوائل كما قدّمنا، قد وضعوا القرآن أمامهم، وجعلوه إمامَهم، وساروا خلفه، لكن مسلمي اليوم وضعوه وراء ظهورهم ويريدون منه أن يوجّههم من الخلف، وهذا من غير الممكن أبداً. على المسلمين أن يجعلوا من القرآن الكريم رائدهم الّذي يسير أمامهم، ومرآتهم التي تنعكس فيها أعمالهم، وكلّما كانت المرآة أنقى وأصفى، كانت الصورة أوضح، ومهما وافق ما فيه

التزموا به وعملوه، وما لم يتّفق مع ما فيه نبذوه وألطّرحوه جانباً. يعني، إنّ على المسلمين أن يُنْقوا فهمهم، وتعاملهم مع القرآن الكريم، والسنّة النبوية المطهَرة ممّا علق بهذا الفهم والتعامل من شوائب، وممّا تراكم عليهما من غبار العادات والتقاليد البالية.

على علماء الأمّة الإسلامية أن يدافعوا عن تفسير القرآن الكريم وفهم السنّة النبوية المطهَّرة ويقدّموهما إلى الناس نَقِيَّيْن طاهرين من الشوائب التي لحقت بهما على مرِّ العصور، وإن كان العمل بين كثير من الناس على خلاف ما ورد في القرآن الكريم، والسُّنّة النبويّة المطهَّرة في كثير من الأحيان، كما قال عبد الله بن الحسن بن الحسن بن عليّ بن أبي طالب.

"كان عبد الله بن الحسن يُكثِر الجلوس إلى ربيعة[٤٠]. قال: فتذاكروا يوماً السُّنَنَ.

فقال رجل كان في المجلس: ليس العمل على هذا.

فقال عبد الله: أرأيت إن كَثُرَ الجُهّال، حتى يكونوا هم الحكّام، أفَهُمُ الحُجَّةُ على السُّنَّة؟

قال ربيعة: أشهد أنّ هذا كلام أبناء الأنبياء."[٤١]

كذلك المسلمون الأوائل لم يخافوا تأثير التيارات الفكرية والدينية الأجنبية على الإسلام، بل تَحَدَّوها بالإسلام وقهروها وجعلوا كلمة الله هي العليا، أمّا مسلمو اليوم فتقوقعوا على أنفسهم، وأصبحوا يخافون أي تيار فكري أجنبي مهما ضَعُفَ، وحَقُرَ شأنه، أن يهدم الإسلام، وكأنّ الإسلام والله أصبح كالبيضة الخداج، أيّ شيء يكسره. لا، أيّها الإخوة المسلمون! الإسلام أقوى بكثير ممّا تصوّره بعض العقول القاصرة.

لقد خاف حكّام المسلمين، وعلماؤهم، في العصر الحاضر من الشيوعية، وتأثيرها الهدّام على الإسلام، وأنهدمت الشيوعية، وسقطت رايتها في عقر دارها، وبقيت راية الإسلام شامخة خفّاقة في كل مكان وصلت إليه من الدنيا.

٤٠ــ ربيعة الرأي، واسمه ربيعة بن أبي عبد الرحمن، فقيه عالم، كان صاحب الفتوى في المدينة، وكان يجلس إليه وجوه الناس، توفي سنة ١٣٦هـ.

٤١ــ ابن عساكر، مختصر تاريخ دمشق، م ١٢، ص ١١٠.

المسلمون الأوائل فتحوا العالم القديم، وكانوا قلّة قليلة إذا قيست بالأعداد الهائلة من الشعوب التي حرَّروها من نير الأكاسرة والأباطرة، فاختلطوا بهذه الأمم، وقادوها إلى ما فيه خيرها، وعملوا على هدايتها إلى الإسلام بحسن معاملتهم، وأخلاقهم الإسلامية السمحة، أمّا مسلمو اليوم فينادون بالتقوقع والانغلاق أمام الغرب والشرق، حتى بعض المسلمين الذين يعيشون في أوروبا وأمريكا ينادون ويحثّون المسلمين في تلك البلاد على عدم الاختلاط بغير المسلمين من سكان تلك البلاد الذين يشكّلون الأغلبية الساحقة من السكان، وفي نفس الوقت نرى هؤلاء الدعاة يعملون أجَراء عند الأمريكان وغيرهم من غير المسلمين، ويأكلون من خيراتهم، ويلبسون ملابسهم، ويتمتّعون بكل ما اخترعه العقل الغربي من أدوات الحياة اليومية، كالسيارات، والطائرات، والتلفزيون، والتلفون الثابت والمتنقل، والثلاجات إلى آخره، ويرفضون رفضاً باتّاً بناء اقتصاد إسلاميٍّ يحقّق لهم الحريّة والكرامة، بحُجَّة أنّهم مقيمون مؤقتاً في هذه البلاد، وأنّهم راجعون قريباً جدًا بعد وفاتهم إلى بلادهم إن شاء الله، بلاد الإسلام، والدِّين، والحريّة، والكرامة! وتمضي السّنون، وهم قابعون في بلاد الأجانب، ويهرمون، ويموتون، ويدفنون، وإن شاء الله سيبعثون من أرض الكفر، وطبعًا ينشأ أولادهم وبناتهم في تلك البلاد، (والحال حالٌ، والكلام كلام)، على حدِّ قول شاعرنا الفلسطينيّ، المرحوم عبد الرحيم محمود.

الأمّة الإسلاميّة أصبحت أمّة مُسْتَهْلِكة وليست أمّة مُنْتِجة، ولا يساعد الأمم على الاستقلال، والتحرّر من التبعية، إلاّ الإنتاج الصناعي، والزراعي المحلّي. هذه حقيقة يجب أن يَعِيَها المسلمون في مشارق الأرض ومغاربها، فليشمِّروا عن ساعد الجدّ ويطوّروا صناعاتهم، وزراعتهم بأنفسهم، كما فعلت اليابان وألمانيا بعد الحرب العالمية الثانية من بعد انهيار اقتصادي هائل، خاصّة ألمانيا، حيث أصبح المارك الألماني لا يساوي شيئاً، أمّا اليوم، فإنّ المارك الألماني والين الياباني من أقوى عملات العالم، وأين هي عملات المسلمين من الريال والدينار وغيرهما التي تقارب المارك والين في القيمة؟

وإذا سألنا بعض من يتصدَّرون للوعظ والإرشاد بين المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها: لماذا هذا العجز، والتأخُّر، والتواكُل، في هذه الأمور الحيوية، التي لا حياة للأمم بدونها؟

يقولون لك بكلّ ثقة: "لَهُمُ الدُّنْيا، ولَنا الآخِرَة، نحن طُلاّبُ آخِرَة، ولَسْنا طُلاّبَ دُنْيا."

وكما يبدو غاب عنهم كيف طلب الرسول الكريم صلّى الله عليه وسلّم، والصحابة، والتابعون، الآخرة، كما سنبيِّن في ما يلي من هذا الكتاب إن شاء الله ربِّ العالمين.

الأمّة الإسلامية على امتداد الأرض ليس لها من أمر حكمها شيء، فالأمر موزّع خطأً بين ردِّه دوماً إلى الله سبحانه وتعالى من جهة، وبين إلقاء اللَّوم على الحكام الظلمة من جهة أخرى.

لقد وصفت إحدى الطالبات العربيات في منتصف سنوات سبعينات القرن الماضي، في إحدى جامعات كاليفورنيا الوضع في العالم العربي، بعدما رجعت إلى بلدها، بالعبارة التالية: "ألشّعب العربي، يأكل، ويشرب، وينام، ويحمد الله الّذي لا يُحْمَدُ على مكروهٍ سِواه."

فهل تريدون أيّها الأخوات والإخوة! وصفاً أدقّ من هذا، لحال الأمّة الإسلامية في العصر الحاضر؟

تعالوا نستمع إلى خطباء، وأئمة المسلمين، في أدعيتهم عقب انتهاء الصلوات المفروضة، خاصّة صلاة الجمعة، فهم دوماً يردّدون الدعاء التالي: "أللّهُمَّ! وَلِّ على المسلمين خِيارَهُم وباعِدْ عنهم شِرارَهُم."

يدعو المسلمون، وينتهون عند الدّعاء، وهكذا يمشي الحال جمعة، وراء جمعة، وراء جمعة، إلى يوم يبعثون، أو حتى يغيِّروا ما بأنفسهم، كما قال الله سبحانه وتعالى: (إنَّ اللهَ لا يُغَيِّرُ ما بقوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا ما بأَنْفُسِهِمْ.) (الرعد ١١/١٣)

وأين دعاء أئمة مساجدنا هذا من ردّ الخليفة الراشد، عمر بن الخطاب رضي اللّه عنه على الذين ادَّعَوا أنّ اللّه ولّى عمّار بن ياسر عليهم، كما روى الأعمش، عن حبيب بن أبي ثابت، قال: "سألهم عمر بن الخطاب عن عمّار، فأثنوا عليه، وقالوا: واللهِ ما أنت أمَّرته علينا، ولكن اللهَ أمَّره.

فقال عمر: اتَّقوا اللهَ، وقولوا كما يقال! فوالله لأنا أمَّرتُهُ عليكم، فإن كان صواباً، فمن قِبَل الله، وإن كان خطأ إنّه من قِبَلِي."[٤٢]

لقد أصاب عمر الذي وصفه الصحابي الجليل عبد الله بن مسعود بقوله: "ما رأيت عمر إلاّ وكأنّ بين عينيه مَلَكاً يُسَدِّدُهُ."[٤٣]

إنّ كلّ حكام المسلمين في العصر الحاضر دون استثناء ظلمة، ومن يعترض على هذا القول، فليكذّبنا بواحد! وما هذه الثورات الشعبية التي تهبُّ في العالم العربي من الغرب إلى الشرق، تونس، مصر، اليمن، البحرين، ليبيا، وعُمان هذه الأيام إلاَّ دليل على ما نقول.

والسؤال هنا: وهل يولّي الله، الرحمن، الرحيم، الملك، العدل، الحقّ، على الناس حكّاماً ظلمة يسومونهم الخسف وسوء العذاب، وهو الذي يقول في الحديث القدسي: (يا عِبادِي! إنّي حَرَّمْتُ الظُّلْمَ عَلَى نَفْسِي، وَجَعَلْتُهُ بَيْنَكُمْ مُحَرَّماً، فَلا تَظالَمُوا.)[٤٤]

ولننظر في أسماء الله الحسنى التي نجد فيها أسماءً للهِ مثل: "ألحَكَم، العدل، الرحمن، الرحيم، اللطيف، ألحَقُّ".

فهل إله مثل هذا في رحمته وعدله يظلم عباده بتولية حكام ظلمة عليهم يسومونهم سوء العذاب؟ حاشا لله! وتَعالَى اللهُ عَمّا يَصِفُونَ.

وهناك حديث يروى عن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم يقول: (مَنْ أعانَ ظالِماً سَلَّطَهُ اللهُ عَلَيْهِ.)[٤٥]

٤٢ــ الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج ١، ص ٤٢٣.

٤٣ــ ابن عساكر، مختصر تاريخ دمشق، م ١٨، ص ٣٢١.

٤٤ــ مسلم، صحيح، كتاب البر.

٤٥ــ ابن عساكر، مختصر تاريخ دمشق، ج ١٤، ص ١٥٣.

وقال أبو بكر الصّدّيق رضي الله عنه بعد أن حمد الله وأثنى عليه: "يا أيّها النـاس! إنّكم تقرأون هذه الآية وتضعونها على غير مواضعها: (عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إذا اهْتَدَيْتُمْ)[٤٦]. وإنّا سمعنا النبيَّ صلّى الله عليه وسلّم يقول: (إنَّ النّاسَ إذا رَأوُا الظّالِمَ فَلَمْ يَأخُذُوا عَلى يَدَيْهِ، أوْشَكَ أنْ يَعُمَّهُمُ اللّهُ بعِقابٍ.)

وفي رواية أخرى، قال: "وإنّي سمعت رسول الله صلّى الله عليه وسلّم يقول: (ما مِنْ قَوْمٍ يُعْمَلُ فيهِمْ بالمَعاصِي ثُمَّ يَقْدِرُونَ عَلى أنْ يُغَيِّروا، ثُمَّ لا يُغَيِّروا، إلاّ يُوشِكُ أنْ يَعُمَّهُمُ اللهُ بعِقابٍ.)[٤٧]

وفي شأن الآية السابقة، حدّث أبو أميّة الشعباني، قال: سألت أبا ثعلبة الخُشَني، فقلت: يا أبا ثعلبة! كيف تقول في هذه الآية: عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ...؟ قال: أما والله لقد سألتَ عنها خبيراً. سألتُ عنها رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، فقال: (بَلِ ائْتَمِروا بالمَعْروفِ، وَتَناهَوْا عَنِ المُنْكَرِ! حَتَّى إذا رَأيْتَ شُحًّا مُطاعًا، وَهَوىً مُتَّبَعًا، وَدُنْيا مُؤْثَرَةً، وَإعْجابَ كُلِّ ذي رَأيٍ بِرَأيِهِ، وَرَأيْتَ أمْراً لا يَدانِ لَكَ بِهِ[٤٨]، فَعَلَيْكَ خُوَيِّصَةَ نَفْسِكَ. فإنَّ مِنْ وَرائِكُمْ أيّامَ الصَّبْرِ. ألصَّبْرُ فيهِنَّ عَلى مِثْلِ قَبْضٍ الجَمْرِ. لِلْعامِلِ فيهِنَّ مِثْلُ أجْرِ خَمْسينَ رَجُلاً يَعْمَلونَ بمِثْلِ عَمَلِهِ.)[٤٩]

وحمّل الرسولُ الكريمُ عامّة الشعب مسؤولية إيقاف الخاصّة عند حدّهم ومنعهم من ارتكاب المنكر، وإلاّ عذّب اللهُ العامّة بذنوب الخاصّة.
قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: (إنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ لا يُعَذِّبُ العامَّةَ بعَمَلِ الخاصَّةِ حَتّى يَرَوا المُنْكَرَ بَيْنَ ظَهْرانَيْهِمْ، وَهُمْ قادِرونَ على أنْ يُنْكِروهُ، فَلا يُنْكِروهُ، فإذا فَعَلُوا ذلِكَ، عَذَّبَ اللهُ العامَّةَ والخاصَّةَ.)[٥٠]

٤٦ــ المائدة ١٠٥/٥.

٤٧ــ أبو داوود، سنن، ج ٤، ص ص ٥٠٩-٥١٠، حديث ٤٣٣٨.

٤٨ــ أي لا قدرة لك به.

٤٩ــ ابن ماجة، سنن، كتاب الفتن، حديث ٤٠١٤؛ أبو داوود، سنن، ج ٤، كتاب الملاحم، حديث ٤٣٤١.

٥٠ــ رواه أحمد والطبراني، أنظر الهيثمي، المجمع، ج ٧، ص ٢٦٧.

وفي رواية أخرى، قال صلى الله عليه وسلم: (إنَّ اللهَ لا يُعَذِّبُ العامَّةَ بعَمَلِ الخاصَّةِ، حَتَّى تَعْمَلَ الخاصَّةُ بعَمَلٍ تَقْدِرُ العامَّةُ أنْ تُغَيِّرَهُ ولا تُغَيِّرُهُ، فذاكَ حِينَ يَأْذَنُ اللهُ في هَلاكِ العامَّةِ والخاصَّةِ.)[٥١]

وسألتْ عائشةُ، أمّ المؤمنين رضي الله عنها رسولَ الله صلّى الله عليه وسلّم عن هلاك العامّة والخاصّة، أي هلاك الصالحين والطالحين.
"رُوِيَ عن عائشة رضي الله عنها، قالت: قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: (إذا ظَهَرَ السُّوءُ في الأرْضِ، أنْزَلَ اللهُ بأهْلِ الأرْضِ بَأْسَهُ.
قلت: يا رَسُولَ الله! وَفِيهِمْ أهْلُ الطّاعَةِ؟
قال: نَعَمْ، ثُمَّ يَصِيرُونَ إلى رَحْمَةِ اللهِ.)[٥٢]

لقد طبّق الرسولُ الكريمُ محمّد صلّى الله عليه وسلّم ما حذّر أمّتَه منه تطبيقاً عمليّاً ولم يُقِرَّ الناس على معصية مهما كَبُرَتْ أو صَغُرَتْ، لا فرق بين شريف أو وضيع، إذ عندما سرقت المرأة المخزوميّة وثبتت عليها تهمة السرقة، أمر رسول الله صلّى الله عليه وسلّم بتطبيق الحَدّ عليها بقطع يدها، وحاولت قريش إيقاف تطبيق الحَدّ بتوسيط أسامة بن زيد، حِبّ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، كما روي عن عائشة أمّ المؤمنين رضي الله عنها، قالت: "إنّ قريشاً أهمّهم شأنُ المرأة المخزومية التي سرقت، فقالوا: مَن يكلّم فيها رسول الله صلّى الله عليه وسلّم؟ فقالوا: ومَن يجتريء عليه إلاّ أسامة بن زيد، حِبّ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم؟ فكلّمه أسامة. فقال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: أتَشْفَعُ في حَدٍّ مِنْ حُدودِ اللهِ؟
ثمّ قام فاختطب، ثمّ قال: "إنَّما أهْلَكَ مَنْ كانَ قَبْلَكُمْ، أنَّهُمْ كانوا يُقيمونَ الحُدُودَ على الوَضيعِ، وَيَتْرُكونَ الشَّريفَ، وَأيْمُ اللهِ! لَوْ أنَّ فاطِمَةَ ابْنَةَ مُحَمَّدٍ سَرَقَتْ لَقَطَعَ مُحَمَّدٌ يَدَها."[٥٣]

٥١ــ رواه الطبراني ورجاله ثقات، أنظر الهيثمي، المجمع، ج ٧، ص ٢٦٨.

٥٢ــ ابن أبي شيبة، المصنف، ج ٧، ص ٤٥٩، حديث ٣٧٢١٥.

صلّى الله عليك يا رسول الله! لقد ضربت لأمّتك أروع الأمثال من الخُلُق الرفيع، والوقوف مع الحقّ أينما كان، لا تأخذك في الله لومة لائم، والإبتعاد عن الإثم مهما كان يسيراً، حاشاك! حاشاك! أن تقف مع الظلم، أو تناصر الظالم، وأنت صفوة الله في خَلْقه، إنّك كما وصفك الله سبحانه وتعالى: (وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ.) (القلم ٤/٦٨)

وروي عن عائشة أمّ المؤمنين رضي الله عنها. قالت: "ما خُيِّرَ رَسُولُ اللهِ صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في أمْرَيْنِ إلاّ اخْتارَ أيْسَرَهُما، ما لَمْ يَكُنْ إثماً، فإنْ كانَ إثماً كانَ أبْعَدَ النّاس مِنْهُ. وَما انْتَقَمَ رَسُولُ اللهِ صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِنَفْسِهِ، إلاّ أنْ تُنْتَهَكَ حُرْمَةُ اللهِ عَزَّ وَجَلّ"

وفي رواية أخرى قالت رضي الله عنها: "ما رَأيْتُ رَسُولَ اللهِ صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مُنْتَصِراً مِنْ ظُلامَةٍ ظُلِمَها قطُّ، إلاّ أنْ يُنْتَهَكَ مِنْ مَحارِمِ اللهِ شَيْءٌ، وَإذا انْتُهِكَ مِنْ مَحارِمِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ شَيْءٌ كانَ أشَدَّهُمْ في ذلِكَ، وَما خُيِّرَ بَيْنَ أمْرَيْنِ قطُّ إلاّ اخْتارَ أيْسَرَهُما ما لم يَكُنْ إثماً، فإنْ كانَ إثماً كانَ أبْعَدَ النّاس مِنْهُ."[٥٤]

ويُسْرُ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم يتمثّل في شهادة الصحابي أبو بَرْزَة الأسلمي، كما رُويَ عن الأزرق بن قيس، قال: كنّا على شاطئ نهر بالأهواز، فجاء أبو بَرْزة يقود فرساً، فدخل في صلاة العصر. فقال رجل: أنظروا إلى هذا الشيخ! وكان أنفلت فرسه، فأتّبعها في القِبْلة حتى أدركها، فأخذ بالمِقْوَد، ثمّ صلّى. قال: فسمع أبو بَرْزة قول الرجل، فجاء، فقال: ما عَنّفني أحد منذ فارقت رسول الله غير هذا، إنّي شيخ كبير، ومنزلي مُتَراخ (أي بعيد)، ولو أقبلتُ على صلاتي، وتركت فرسي، ثمّ ذهبتُ أطلبها، لم آتِ أهلي إلاّ في جنح اللّيل. لقد صحبتُ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم فرأيتُ من يُسْرِه. فأقبلنا نعتذر ممّا قال الرّجل.
وفي رواية أخرى عن الأزرق قال: كنت مع أبي بَرْزة بالأهواز، فقام يُصلّي العصر، وعنان فرسه بيده، فجعلت تَرْجِع، وجعل ينكُصُ معها. قال: ورجل من

٥٣ــ فؤاد عبد الباقي، اللؤلؤ والمرجان، ج ٢، ص ص ١٨٥-١٨٦، حديث ١١٠٠؛ ابن جماعة، تحرير الأحكام، ص ص ٦٧-٦٨.

٥٤ــ ابن أبي الشيخ، أخلاق النبيّ، ص ص ٣٤-٣٥.

الخوارج يشتُمه، فلمّا فرغ، قال: إنّي غزَوْتُ مع رسول الله صلّى الله عليه وسلّم سِتًّا أو سَبْعاً، وشهدت تيسيره.[٥٥]

وإلى المتشدّدين والمتنطّعين في الدين نقول: هذا هو خُلُق الرسول الكريم وسنّته لمن أراد التخلُّق بأخلاقه والإستنان بسنّته الشريفة القويمة.

ولقد بيَّن لنا الرسول الكريم صلّى الله عليه وسلّم متى يضعف أمر الناس ويتوقفون عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

"عن أنس بن مالك، قال: قيل: يا رسول الله! مَتى نَتْرُكُ الأمْرَ بالمَعْروفِ، وَالنَّهْيَ عَنِ المُنْكَرِ؟

قال: إذا ظَهَرَ فيكُمْ ما ظَهَرَ في الأمَمِ قَبْلَكُمْ.

قلنا: يا رسول الله! وَما ظَهَرَ في الأمَمِ قَبْلَنا؟

قال: الْمُلْكُ في صِغارِكُمْ. وَالْفاحِشَةُ في كِبارِكُمْ. وَالْعِلْمُ في رُذالَتِكُمْ."

قال زيد بن يحيى بن عبيد الخزاعي، أحد رواة هذا الحديث: تفسير معنى قول النبيّ صلّى الله عليه وسلّم: وَالعِلْمُ في رُذالَتِكُمْ، إذا كان العلم في الفُسّاق.[٥٦]

وقال الحسن البصري: "حَمَلَة القرآن ثلاثة نفر: رجل اتَّخَذه بضاعة ينقله من مِصْرٍ إلى مِصْرٍ يطلب به ما عند الناس. ورجل حفظ حُروفه وضَيَّعَ حُدوده، وٱسْتَدَرَّ به الوُلاة، وٱسْتَطال به على أهل بلده، وقد كَثُرَ هذا الضربُ في حملة القرآن، لا كَثَّرَهم الله عزَّ وجَلَّ.

ورجل قرأ القرآن، فوضع دواءَهُ على داءِ قلبه، فسَهِرَ ليلته، وهَمَلَت عيناه (أي بَكَتْ)، وتَسَرْبَلَ الخُشوعَ، وٱرْتَدَى الوَقارَ، وٱستشعر الحُزْنَ، ووالله لهذا الضَّرْب من حملة القرآن أقلُّ من الكبريت الأحمر، بهم يَسْقي اللهُ الغَيْثَ، ويُنَزِّل النصرَ، ويَدْفع البَلاءَ."[٥٧]

٥٥ــ الذهبي، سِيَر أعلام النبلاء، تحقيق شعيب الأرناؤوط وآخرين، الطبعة الثامنة، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٤١٢هـ/١٩٩٢م، م ٣، ص ص ٤١-٤٢.

٥٦ــ ابن ماجة، سنن، ج ٢، ص ١٣٣١، كتاب الفتن، حديث ٤٠١٥.

٥٧ــ ابن عبد ربّه، العقد الفريد، م ٢، ص ٢٤٠.

المحاورة التالية بين عمرو بن العاص وبين عظيم من عظماء قبط مصر، تصوِّر الفرق بين حال المسلمين عندما تمسّكوا بهدي القرآن، وبسُنَّة رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، وحالهم عندما ابتعدوا عن هدي القرآن، وسُنَّة الرسول صلّى الله عليه وسلّم، واتّبعوا أهواء ملوكهم.

قال عمرو بن العاص: خرج جيش من المسلمين أنا أميرهم حتى نزلنا الإسكندرية، فقال عظيم من عظمائهم: أخْرجوا إليّ رجلاً أكلّمه ويكلّمني، فقلت: لا يخرج إليه غيري. فخرجت معي ترجمان ومعه ترجمان، حتى وُضِع لنا منبران، فقال: ما أنتم؟

قلت: نحن العرب، ومن أهل الشَّوْك والقُرَظ، ونحن أهل بيت الله، كنّا أضيق الناس أرضاً وشرَّه عَيْشاً، نأكل الميتة والدّم، ويُغير بعضنا على بعض، كُنّا بشَرّ عيش عاش به الناس، حتى خرج فينا رجل ليس بأعظمنا يومئذ شرفاً، ولا أكثرنا مالاً، وقال: أنا رسول الله إليكم؛ يأمرنا بما لا نعرف، وينهانا عمّا كنّا عليه وكانت عليه آباؤنا، فشنفنا له[٥٨] وكذّبناه، ورددنا عليه مقالته، حتى خرج إليه قوم من غيرنا، فقالوا: نحن نصدِّقك، ونؤمن بك ونتّبعك ونقاتل من قاتلك، فخرج إليهم، وخرجنا إليه، وقاتلناه، فقتلنا، وظهر علينا، وغلبنا، وتناول مَن يليه من العرب، فقاتلهم حتى ظهر عليهم، فلو يعلم من ورائي ما أنتم فيه من العيش لم يبقَ أحد إلاّ جاءكم حتى يشرككم فيما أنتم فيه من العيش.

فضحك، ثمّ قال: إنّ رسولكم قد صدق، وقد جاءتنا رسلنا بمثل الّذي جاء به رسولكم، وكنّا عليه حتى ظهرت فينا ملوك، فجعلوا يعملون فينا بأهوائهم ويتركون أمر الأنبياء، فإن أنتم أخذتم بأمر نبيّكم لم يقاتلكم أحد إلاّ غلبتموه، ولم يُسارقكم أحد إلاّ ظهرتم عليه، فإذا فعلتم مثل الّذي فعلنا فتركتم أمر نبيِّكم، وفعلتم بمثل الّذي عملوا بأهوائهم، وخُلِّيَ بيننا وبينكم، لم تكونوا أكثر عدداً منّا ولا أشدَّ منّا قوّة.

قال عمرو بن العاص: فما كلّمت رجلاً قطّ أذكى منه."[٥٩]

٥٨ــ شنف له = أبغضه وتنكّر له.

٥٩ــ ابن عساكر، مختصر تاريخ دمشق، م ١٩، ص ٢٤٣.

فلننظر حولنا! أليس هذا هو حال المسلمين، أينما توجّهنا في العالم الإسلامي؟ ألحكم في أيدي الصغار، أي الذين لا خبرة لهم ولا تجربة في شؤون الحكم من الضباط الفاشلين في قيادة جيوشهم للدفاع عن حمى الوطن المباح لكل غازٍ، وهم في قيادة أمّتهم أكثر فشلاً، فهم يتخبّطون في إدارة أمور الأمم التي يحكمونها بقوة الحديد والنار، والويل كل الويل لمن يوجّه لهم كلمة نقد أو نصيحة. لقد كان الجيش المسلم في عهد الرسول الكريم صلّى الله عليه وسلّم، والخلفاء الراشدين، جيش الشعب، جيش الأمّة، يحارب أعداءها ويدافع عن حرماتها، ولكن للأسف الشديد منذ مقتل الخليفة الراشد، عثمان بن عفان رضي الله عنه والفتنة التي حدثت بين علي بن أبي طالب ومعاوية بن أبي سفيان بعد ذلك، حيث انقسم الجيش المسلم إلى قسمين متحاربين، أحدهما يدافع عن حقّ عليّ بالخلافة، والآخر يدافع عن حقّ معاوية، بالإضافة إلى الخوارج، الذين أصبح لهم جيش خاصّ بهم، صار الجيش المسلم، جيشَ ملوك، وحكّام، وسلاطين، وليس جيش شعب، أصبح الجيش المسلم قوّة قاهرة، تقهر الشعب، وتفرض عليه سلطة سلطان جائر، لا يرعى في الشعب الذي يحكمه إلاً ولا ذمّة.

والكبار، أي رجال الطبقة العليا من المجتمع يرتكبون من الفواحش، ما ظهر منها، وما بطن، حيث لم يَعُد لهم احترام أو تقدير في نفوس الحكام والناس، ففقدوا سلطتهم الروحية، والمعنوية، والأدبية، لدى الشعب، ولدى الحكّام.

والعلماء كثيرون منهم من أراذل الناس الذين لا همّ لهم إلاّ الحصول على المناصب العالية في الدولة، والتسبيح بحمد الحكام الظلمة، وإصدار الفتاوى التي ما أنزل الله بها من سلطان تأييداً للحكام، وتثبيتاً لسلطتهم على الشعب المقهور والمسحوق. والقلّة القليلة من العلماء الأفذاذ أصحاب النفوس الكبيرة والأبيّة الذين يشدّدون النكير على الحكام الظلمة يقبعون في قعر القبور، أو في غياهب السجون، والذي بقي منهم طليقاً يُمنَع من الكلام والوعظ.

هذا هو حال علماء الأمّة الإسلامية منذ أيّام عبد الملك بن مروان حين أمر والي المدينة أن يجلد التابعي الكبير، سعيد بن المسيّب، لأنه عارض عبد الملك في البيعة لأولاده من بعده بالخلافة، عندما أتاه هشام بن إسماعيل، والي المدينة من

قِبَلِ عبد الملك، فكتب فيه إلى عبد الملك. فكتب إليه عبد الملك: ما لَكَ ولسعيد! ما كان علينا منه شيء نكرهه، فأمّا إذ فعلت، فاضربه ثلاثين سوطاً، وألبسه ثياباً من شعر، وأوقفه للنّاس، لئلاّ يقتدي به النّاس. فدعاه هشام، فأبَى عليه، فقال: لا أبايع لاثنين[٦٠]. فضربه ثلاثين سوطاً، وألبسه ثياباً من شعر، وأوقفه للنّاس.[٦١]

وتبعه المأمون العبّاسي، هذان الملكان، ابتدعا في الإسلام بدعة منكرة، امتدّت إلى يومنا هذا، وهي بدعة ضرب العلماء، وإهانتهم، وسجنهم، وتعذيبهم، حتى الموت، خاصّة المأمون الذي انتصر لفكر المعتزلة الذين نادَوا ببدعة خَلق القرآن، وحاولوا بمساعدة المأمون، وأخيه المعتصم، أن يفرضوها على المسلمين، لولا أن قيَّضَ اللّهُ سبحانه وتعالى للأمّة الإسلامية فئة من العلماء الأفذاذ، لا تأخذهم في الحقّ لومة لائم من أمثال الإمام أحمد بن حنبل رضي اللّه عنه، وصحبه من العلماء المؤمنين، فوقفوا للمأمون، وأخيه المعتصم[٦٢] وقفة إيمانية رائعة رغم السجن والتعذيب حتى حفظوا على الأمة الإسلامية إيمانها بكتاب ربّها الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، ولقد قال تعالى وقوله الحقّ: (إنّا نَحْنُ نَزَّلْنا الذِّكْرَ وَإنّا لَهُ لَحافِظُونَ.) (الحجر ٩/١٥)

ولنستمع إلى رأي بعض علماء المسلمين في موقف أحمد بن حنبل ضدّ المأمون والمعتصم، أثناء محنة خلق القرآن، وتخلّي الأمّة بعلمائها، وقادتها، وجماهيرها عنه، قال الميموني: قال لي علي بن المديني: "يا ميموني! ما قام أحد في الإسلام ما قام به أحمد بن حنبل. فتعجّبت من هذا عجباً شديداً، وأبو بكر الصّدِّيق رضي الله عنه قد قام في الرِّدَّة وأمر الإسلام ما قام به.

قال الميموني: فأتيت أبا عبيد القاسم بن سلام، فتعجَّبت إليه من قول عليّ!

فقال: إذاً يخصمك.

قلت: بأيّ شيء يا أبا عبيد؟ وذكرت له أمر أبي بكر.

٦٠ــ يعني : الوليد وسليمان ولدَي عبد الملك.

٦١ــ الفسوي، المعرفة والتاريخ، م ١، ص ٤٧٦.

٦٢ــ حكم المأمون من ٨١٣-٨٣٣ م، والمعتصم من ــ٨٣٣-٨٤٢ م.

قال: إنّ أبا بكر رضي الله عنه وجد أنصاراً وأعواناً، وإنّ أحمد بن حنبل لم يجد ناصراً."[٦٣]

هذا ما جرى للعالمين، والإمامين الكبيرين، سعيد بن المسيَّب، وأحمد بن حنبل، من الضرب، والتعذيب، والتحقير، والإهانة، ولم نسمع بأنَّ أحداً من علماء الأمَّة، أو جماهيرها، هبَّ لنصرتهما على من ظلمهما، وبظلمهما ظلم الأمَّة كلَّها.

فهل هذا من صنع الله الرحمن الرحيم؟ لا والله! إنّه من صنع أيدي الناس الذين يَعُونَ مصالحهم، ويولّون على أنفسهم حكّاماً، يعملون على إسعادهم، والناس الذين لا يَعُونَ مصالحهم، ولا يعرفون قبيلاً من دَبير، ويستكينون للحكام الظلمة، الفاشلين، الذين يوردونهم المهالك، ولا يثورون عليهم، بل يستسلمون لهم، ويهتفون لهم، ويسبِّحون بحمدهم، وفي نفس الوقت يعاتبون القدر الذي بزعمهم وَلاّهم عليهم. وكلّما فشل هؤلاء الحكّام في قيادة الأمّة، وأوردوها المتالف، كلّما تمسّكت الأمّة بهم أكثر وأكثر، وعلا هتافها لهم، وكأنّها أمّة لا تحب إلاّ الفاشلين من الحكّام.

والسؤال الذي يطرح نفسه مرّة أخرى، هل يولّي الله سبحانه وتعالى على المسلمين حاكم مثل المأمون والمعتصم ومن تبعهما من الحكام الظلمة إلى يومنا هذا؟ لا! إنّ الله لا يولّي مثل هؤلاء على الناس. نحن الذي نولّي حكامنا، أستغفر الله! إنّهم يتولّون علينا شئنا أو أبَيْنا بقوّة السلاح، ولا نقوم في وجوههم ونوقفهم عند حدّهم، ونمنعهم من ارتكاب المظالم والآثام بحقّ الشعب. أنظروا ماذا حدث للأمة العربية الإسلامية منذ نكبة فلسطين عام ١٩٤٨ وحدوث الإنقلابات العسكرية بوحي من المخابرات الأجنبية في سوريا، ومصر، والعراق، والسودان، وليبيا، واليمن الخ. لم يتخلص المسلمون من الحكام العسكريين الفاشلين حتى يومنا هذا.

٦٣ــ ابن عساكر، مختصر تاريخ دمشق، ج ٣، ص ٢٤٤.

المسلمون في الماضي انتخبوا حكّامهم من بين خيارهم، أمثال أبي بكر الصّدّيق، وعمر، وعثمان، وعليّ، وولّوْهم عليهم، ونصحوهم، وراقبوهم، كما روى ابن عساكر عن معاوية بن قُرَّة، قال: "كان يُكتب من أبي بكر خليفة رسول الله ، فلمّا كان عمر بن الخطاب أرادوا أن يقولوا: خليفة خليفة رسول الله، قال عمر: هذا يطول. قالوا: لا، ولكنّا أمَّرناك علينا، فأنت أميرنا.

قال: نعم، أنتم المؤمنون، وأنا أميركم.

فكتب: "أمير المؤمنين."[٦٤]

ولقد صوَّر الغاضِري حال الأمّة الإسلامية مع حكّامها في القديم والحديث بقوله: "أعْطانا المُلوكُ الآخِرَة طائِعين، وَأعْطيْناهُمُ الدّنْيا كارِهين."[٦٥]

٦٤ــ السيوطي، تاريخ الخلفاء، ص ١٢٩.

٦٥ــ أبو حيان التوحيدي، البصائر والذخائر، تحقيق وداد القاضي، دار صادر، بيروت، م ٢، ص ٢٦.

أخلاق القرآن

إنّ القرآن الكريم هو القائد والمُوَجِّه الروحي للأمّة الإسلامية، والسنة النبويّة هي البيان والتطبيق العملي لما ورد في القرآن الكريم، لهذا قرَنَ الرسولُ الكريم صلّى الله عليه وسلّم بينهما في حديثه الذي ذكرناه آنفاً، ولا بأس في أن نعيده هنا، الحديث : (تَرَكْتُ فِيكُمْ أمْرَيْنِ لَنْ تَضِلُّوا ما تَمَسَّكْتُمْ بهما، كِتابَ الله وَسُنَّةَ نَبيِّهِ.)

وقالت السيّدة عائشة، أم المؤمنين رضي الله عنها عندما سئلت عن خُلُق رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، كما قدّمنا: "كانَ خُلُقُهُ القُرْآنَ."[٦٦]

نفهم من هذا ومثله، أنّ الرسول الكريم صلّى الله عليه وسلّم تخلّق بأخلاق القرآن الكريم السامية وطبّقها تطبيقاً عمليّاً في حياته اليومية، فكان مِثال حسن الخُلُق والمعاملة، كما وصفه الله سبحانه وتعالى: (وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ.) (القلم ٦٨/٤)

هذا الخُلُق العظيم تمثّل بمعاملة الرسول الكريم صلّى الله عليه وسلّم لرجال قريش الذين حاربوه، وحاربوا دعوته، وقاوموها بشتى السبل، وقتلوا أصحابه، وعذّبوهم، وشرّدوهم كلَّ مشرَّد، حتى اضطروا إلى الهجرة إلى الحبشة، وأخيراً إلى المدينة، حيث قضى الرسول الكريم صلّى الله عليه وسلّم والمهاجرون من مكّة بقيّة حياتهم في المدينة. لكن في نفس الوقت، كان رجال قريش من الكفّار يأتمنونه على أموالهم ومدّخراتهم، فأودعوها عنده، وحفظ الأمانة صلّى الله عليه وسلّم تسليماً كثيراً، إذ عندما هاجر إلى المدينة، أمر عليّ بن أبي طالب، ابن عمّه، أن يتخلّف في مكّة حتى يؤدّي عن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم الودائع التي كانت عنده للنّاس.[٦٧]

٦٦ــ مسلم، صحيح، مسافرين.

٦٧. ابن كثير، البداية والنهاية، م ٢، ج ٣، ص ١٧٦.

ونراه صلّى الله عليه وسلّم بعد ذلك، وبعد عدّة معارك بينه وبين مشركي قريش حتى كادوا يقتلونه في معركة أحد، يرقّ لهم عندما بلغه صلّى الله عليه وسلّم: "أنّ قريشاً أصابتهم شدّة حتى أكلوا الرّمّة، فبعث رسول الله صلّى الله عليه وسلّم بشيء من الذهب إليهم مع عمرو بن أمية وسلمة بن أسلم بن حريش."[٦٨]

فأين نجد مثل هذه الأخلاق العالية والتصرّفات المثالية عند أي قائد أو ملك في الدنيا في الماضي والحاضر؟ لقد قال ميكيافيلي: "إن القوّة تُفسِد، وقوة أكثر تُفسِد أكثر."

ولكن القوة لم تكن لتفسد رسول الله صلّى الله عليه وسلم، بل كلما ازداد قوّة صلّى الله عليه وسلّم كلّما ازداد تواضعاً، وحسن خُلُق. إنّ رسولنا الكريم محمّد صلّى الله عليه وسلّم أثبت فساد المبدأ الذي نادى به ميكيافيلي متأثراً بأخلاق وتصرّفات حكام وملوك أوروبا الذين لم يعرفوا شيئاً من أخلاق الرسول صلّى الله عليه وسلّم وأخلاق المسلمين الأوائل الذين تربَّوا على يدي رسول الله صلّى الله عليه وسلّم.

وها هو الرسول الكريم يزداد قوّة على قوّة ونصراً على نصر، ولكنّه في نفس الوقت يزداد تواضعاً وحسن خُلُق. وتجلّى حسن خُلُقه الكريم يوم فتح مكّة عندما فتح باب الكعبة، ووقف هناك، وقريش قد ملأت المسجد صفوفاً، ينتظرون ماذا يصنع، وبعد خطبة قصيرة، وَعَظهم بها مَوْعِظة بليغة، قال لهم: يا معشر قريش! ما تَرَوْنَ أنّي فاعل بكم؟ قالوا: خيراً، أخٌ كريم وابن أخ كريم! قال: فإنّي أقول لكم كما قال يوسف لإخوته: (لا تَثْريبَ عَلَيْكُمُ اليَوْمَ)، إذهبوا فأنتم الطّلقاء![٦٩]

بهذا الخُلُق الكريم ساس الأمّة الإسلاميّة، وأرسى قواعدها، الروحيّة، والاجتماعية، والاقتصادية، والسياسيّة، والعسكريّة، على أساس العقيدة، والدين، الخالصَيْن.

فالعقيدة، هي عقيدة التوحيد الخالص من أيّ نوع من أنواع الشّرك، عقيدة: (أشهد أن لا إله إلاّ الله، وأشهد أنّ محمّداً رسول الله.)

٦٨ــ ابن حبان، السيرة النبوية، ص ٢٥١.

٦٩ــ ابن القيّم، زاد المعاد؛ الندوي، السيرة النبوية، ص ص ٣٨٦-٣٨٧.

أي الإيمان بوحدانيّة الله وربوبيّته وعبودية الإنسان له وحده، لأنّ الربّ لا يكون إلاّ ربّاً، والعبد لا يكون إلاّ عبداً. لهذا نرى المسلم عندما يعمل عملاً عظيماً، أو يرى شيئاً عظيماً يقول: "الله أكبر!" لأنّه يتذكّر أنّه ما من عمل يعمله الإنسان إلاّ الله أكبر منه، كذلك عندما يتعالى عليه إنسان آخر معتّداً بقوّته وجبروته، أو يظلمه، يصيح به: "الله أكبر!"، مذكّراً إيّاه أنّ سُلطة الله فوق سُلْطته.

وأمرنا الله سبحانه وتعالى بعبادته وحده، بقوله: (وَإِنَّ هذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً واحِدَةً وَأَنا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ.) (الأنبياء ٩٢/٢١)

وقال جَلَّ وعَلا أيضاً: (إِنَّ هذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً واحِدَةً وَأَنا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ) (المؤمنون٥٢/٢٣)

نفهم من هاتين الآيتين الكريمتين، أنّ العامل الموحّد للأمّة الإسلاميّة، هو عبادة الله وحده، وتقواه، وأمّة موحّدة على أساس عبادة الله وحده، وتقواه، لا بدّ لها من أن تنهض، وتنجح، وتسود العالم كلّه، لأنّها خير أمّة أخرجت للنّاس، تأمر بالمعروف، وتنهى عن المنكر، وفوق الكلّ تؤمن بالله ، كما وصفها الله سبحانه وتعالى بقوله: (كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللّهِ.) (آل عمران ١١٠/٣)

فخيريّة الأمّة كما تخبرنا هذه الآية الكريمة مشروطة بالأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، والإيمان بالله، وعندما تتوقف الأمّة عن الأمر بالمعروف، والنّهي عن المنكر، ويشوب إيمانها بالله بعض الشوائب، تسقط عنها الخيريّة، لأنّ هذا شرط وعهد من الله علينا، إذا التزمنا به أعطانا الله ما وعدنا من الخير، وإلاّ حرمنا منه، كما قال جلَّ شأنه مخاطباً بني إسرائيل: (يا بَنِي إِسْرائِيلَ! اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيّايَ فَارْهَبُونِ.) (البقرة ١٢٤/٢)

لأنّ الإنسان الّذي يرتكب الظلم، ويقترف المنكر، ولا ينتهى عن ارتكابه، ولا ينهى عنه، لا يناله عهد الله، كما تخبرنا الآية الكريمة التالية: (وَإِذِ ابْتَلَى إِبْراهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِماتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قالَ: إِنِّي جاعِلُكَ لِلنّاسِ إِماماً، قالَ: وَمِنْ ذُرِّيَّتِي، قالَ: لا يَنالُ عَهْدِيَ الظّالِمِينَ.) (البقرة ١٢٤/٢)

والدين هو الإسلام، كما قال الله عزّ وجلّ: (إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللهِ هُوَ الإِسْلامُ.) (آل عمران ١٩/٣)

وقال عزّ وجلّ أيضاً: (وَمَنْ يَّبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلامِ دِيناً فَلَنْ يُّقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الخاسِرِينَ.) (آل عمران ٨٥/٣)

وقال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: (الْمُسْلِمُ مَنْ سَلِمَ الْمُسْلِمُونَ مِنْ لِسانِهِ وَيَدِهِ وَالْمُهاجِرُ مَنْ هَجَرَ ما نَهَى اللّهُ عَنْهُ.)[٧٠]

إنّ الإسلام هو الأمل للطبقات المسحوقة، والحريّة للمستعبدين من الناس، والمساواة بين جميع أفراد المجتمع على أساس التقوى، كما قال الله سبحانه وتعالى: (يا أَيُّها النّاسُ إنّا خَلَقْناكُمْ مِنْ ذكَرٍ وَأُنْثى وَجَعَلْناكُمْ شُعُوباً وَقَبائِلَ لِتَعارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقاكُمْ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ.) (الحجرات ١٣/٤٩)

وقال رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم مفصّلاً ما أجملته الآية الكريمة: (إِنَّ رَبَّكُمْ واحِدٌ، وَأَباكُمْ واحِدٌ، فَلا فَضْلَ لِعَرَبِيٍّ عَلى أَعْجَمِيٍّ، وَلا أَحْمَرَ عَلى أَسْوَدَ إِلاّ بِالتَّقْوَى.)[٧١]

فإذا علمنا هذا، وعملنا به، فنحن عبيد الله وحده، ولا طاعة إلاّ له، ولمن أطاعه من الحكّام، والقادة، والمسؤولين، كما قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: (لا طاعَةَ في مَعْصِيَةِ اللهِ.)

ولهذا الحديث الشريف قصّة، وهي: "إنّ النبيّ صلّى الله عليه وسلّم بعث عبد الله بن حذافة على سَرِيَّة، فأمر أصحابه، فأوقدوا ناراً، ثمّ أمرهم أن يَثِبُوها، فجعلوا يثبونها، فجاء شيخ لِيَثِبها، فوقع فيها، فاحترق منه بعض ما احترق، فذُكِرَ شأنه لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم، فقال: ما حملكم على ذلك؟ قالوا: يا رسول الله! كان أميراً، وكانت له طاعة. قال: (أَيُّمَا أَمِيرٍ أَمَّرْتُهُ عَلَيْكُمْ، فَأَمَرَكُمْ بِغَيْرِ طاعَةِ اللهِ فَلا تُطِيعُوهُ، فَإِنَّهُ لا طاعَةَ في مَعْصِيَةِ اللهِ.)[٧٢]

٧٠ــ رواه البخاري ومسلم، أنظر الأربعين العسقلانية، ص ٦٣، الحديث الرابع والعشرون.

٧١ــ أبو بكر الهيثمي، مجمع الزوائد، م ٨، ص ٤٨.

٧٢ــ الصنعاني، المصنَّف، م ١١، ص ٣٣٥، حديث ٢٠٦٩٩ و ٢٠٧٠٠

وقال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم يصف الحاكم العادل، والحاكم الظالم، وما على الأمّة الإسلاميّة عمله إذا ابتليت بحكّام ظلمة، وماذا يحدث للأمّة عندما تخاف حكّامها: (تَمَسَّكوا بطاعَةِ أئِمَّتِكُم! لا تُخالِفوهم! فإنَّ طاعَتَهُمْ طاعَةُ اللهِ، وَإنَّ مَعْصِيَتَهُمْ مَعْصِيَةُ اللهِ. وَإنَّ اللهَ إنَّما بَعَثَني أدْعُو إلى سَبيلِهِ بالْمَوْعِظَةِ، فَمَنْ خالَفَني في ذلِكَ فَهُوَ مِنَ الْهالِكينَ، وَقَدْ بَرِئَتْ مِنْهُ ذِمَّةُ اللهِ وَذِمَّةُ رَسولِهِ.

وَمَنْ وَلِيَ مَنْ أمْرِكُمْ شَيْئاً، فَعَمِلَ بغَيْرِ ذلِكَ، فَعَلَيْهِ لَعْنَةُ اللهِ وَالْمَلائِكَةِ وَالنّاسِ أجْمَعِينَ.

وَسَيَليكُمْ أمَراءُ إنِ اسْتُرْحِمُوا لَمْ يَرْحَمُوا، وَإنْ سُئِلُوا الْحُقُوقَ لَمْ يُعْطُوا، وَإنْ أمِرُوا بالْمَعْروفِ أنْكَرُوا، وَسَتَخافونَهُمْ، وَيَفْتَرِقُ مَلَؤُكُمْ فيهِمْ حتّى لا يَحْمِلوكُمْ على شَيْءٍ احْتَمَلْتُمْ طَوْعاً أوْ كُرْهاً، فَأدْنَى الْحَقِّ عَلَيْكُمْ ألاّ تَأْخُذوا مِنْهُمُ العَطاءَ، وَلا تَحْضُروهُمْ في الْمَلأِ.)[٧٣]

إنَّ في هذا الحديث الشريف دعوة إلى العصيان المدني ضد الحاكم الظالم.

وروي عن أم معقل، عن أبيها [معقل بن سنان الأشجعي]، قال: قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: (مَا مِنْ أحَدٍ يَكُونُ عَلَى شَيْءٍ مِنْ أمْرِ هَذِهِ الأمَّةِ، قَلَّتْ أمْ كَثُرَتْ، فَلا يَعْدِلُ فِيهِمْ، إلاّ كَبَّهُ اللهُ في النّارِ.)[٧٤]

أي يجب أن يكون الحاكم لأمور هذه الأمّة، مطيعاً لله، عاملاً بأوامره ونواهيه، كما كان الرسول الكريم صلّى الله عليه وسلّم، وكما كان خلفاؤه الراشدون المهديّون رضوان الله عليهم أجمعين من بعده. وهذه الطاعة لا تكون عمياء حتى للخليفة الراشد أبي بكر الصدّيق رضي الله عنه.

فهذا الخليفة الراشد الذي تربّى على يدي رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، يقول للمسلمين، بعدما انتخبوه خليفة: "أمّا بَعْدُ أيُّها النّاسُ! فإنّي قد وُلّيتُ عَلَيْكُمْ وَلَسْتُ بخَيْرِكُمْ. فَإنْ أحْسَنْتُ فَأعِينُوني، وَإنْ أسَأتُ فَقَوِّموني. ألصِّدْقُ أمانَةٌ، وَالكَذِبُ خِيانَةٌ. وَالضَّعِيفُ فيكُمْ قَوِيٌّ عِنْدي حَتّى أريحَ عَلَيْهِ حَقَّهُ إنْ شاءَ اللهُ. وَالقَوِيُّ مِنْكُمْ

٧٣ــ ابن عساكر، مختصر تاريخ دمشق، م ١١، ص ٢٨٦.

٧٤ــ الحاكم، المستدرك، ج ٤، ص ص ٩٠-٩١.

الضَّعيفُ عِنْدِي حَتّى آخُذَ الحَقَّ مِنْهُ إنْ شاءَ اللهُ. لا يَدَعْ أحَدٌ مِنْكُمُ الجِهادَ في سَبيلِ اللهِ، فإنَّهُ لا يَدَعُهُ قَوْمٌ إلاّ ضَرَبَهُمُ اللهُ بالذُّلِّ."[٧٥] وَلا تَشِيعُ الفاحِشَةُ في قَوْمٍ إلاّ عَمَّهُمُ اللهُ بالبَلاءِ. أطيعوني ما أطعْتُ اللهَ وَرَسُولَهُ! فإذا عَصَيْتُ اللهَ وَرَسُولَهُ فَلا طاعَةَ لِي عَلَيْكُمْ. قُومُوا إلى صَلاتِكُمْ! رَحِمَكُمُ اللهُ."[٧٦]

وفي رواية أخرى، لمّا بويعَ أبو بكر قام خطيباً، فقال: "أمّا بَعْدُ! فإنّي وُلِّيتُ هذا الأمْرَ وَأنا لَهُ كارِهٌ، وَوَاللهِ لَوَدِدْتُ أنَّ بَعْضَكُمْ كَفانِيهِ، ألا وَإنَّكُمْ إنْ كَلَّفْتُموني أنْ أعْمَلَ فيكُمْ بِمِثْلِ عَمَلِ النَّبِيِّ عَلَيْهِ الصَّلاةُ وَالسّلامُ لم أقُمْ بِهِ، كانَ النَّبِيُّ عَلَيْهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ عَبْداً أكْرَمَهُ اللهُ بالوَحْيِ وَعَصَمَهُ بِهِ، ألا وَإنَّما أنا بَشَرٌ، وَلَسْتُ بِخَيْرٍ مِنْ أحَدِكُمْ، فَراعُونِي، فإذا رَأيْتُموني اسْتَقَمْتُ فاتَّبِعُوني، وَإذا رَأيْتُموني زِغْتُ فَقَوِّموني، واعْلَموا أنَّ لي شَيْطاناً يَعْتَريني، فإذا رَأيْتُموني غَضِبْتُ فاجْتَنِبوني، لا أوَثِّرْ في أشْعارِكُمْ وَأبْشارِكُمْ."[٧٧]

لقد أعطى أبو بكر الصديق الحقَّ للأمَّة المظلومة أن تثور على الحاكم الظالم وتعصيه إن عصى اللهَ سبحانه وتعالى، أي أنَّه لم يطبِّق شرائع الله عليهم.

ولمّا بويع أبو بكر أصبح وعلى ساعده أبرادٌ (نوع من القماش)، وهو ذاهب إلى السوق، فقال عمر: أين تريد؟ قال: إلى السوق. قال: تصنع ماذا، وقد وُلِّيتَ أمر المسلمين؟ قال: فمن أين أطعِم عيالي؟ فقال: إنطلق! يفرض لك أبو عبيدة. فانطلقا إلى أبي عبيدة، فقال: أفرضُ لك قُوتَ رجل من المهاجرين، ليس بأفضلهم ولا أوْكَسهم، وكُسْوَةَ الشتاء والصيف، إذا أخْلَقتَ شيئاً رَدَدْته وأخذت غيره. ففرضا له كلّ يوم نصف شاة، وماكَساه في الرأس والبطن."[٧٨]

ونقل السيوطي رواية أخرى: لمّا استُخلِف أبو بكر جعلوا له ألْفَيْن (درهم). فقال: زيدوني! فإنّ لي عيالاً، وقد شغلتموني عن التجارة. فزادوه خمسمائة.

٧٥ــ في مصنَّف الصنعاني (بالفقر) بدلاً من (بالذُّل).

٧٦ــ الصنعاني، المصنَّف، م ١١، ص ٣٣٦، حديث ٢٠٧٠٢؛ السيوطي، تاريخ الخلفاء، ص ٦٦.

٧٧ــ السيوطي، تاريخ الخلفاء، ص ٦٦؛ الصنعاني، المصنَّف، م ١١، ص ٣٣٦، حديث ٢٠٧٠١.

٧٨ــ السيوطي، تاريخ الخلفاء، ص ٧٣.

رحم اللهُ أبا بكر ورضي عنه وأرضاه، لقد أطاع اللهَ ورسوله، فأطاعته الأمّة، وشدّت أزره، وأعلن الجهاد، فنصره اللهُ في حروب الرِّدَّة، وفي الفتوحات ضدّ الفرس والروم.

إنّ أبا بكر الصّدّيق وضع من الأمّة رقيباً عليه، وطلب منها الطاعة ما أطاع اللهَ ورسوله، فإذا عصى الله، فلا طاعة له على الناس. فليقارن خطاب أبي بكر بخطبة العرش التي يلقيها ملوك ورؤساء الشعوب الإسلامية الذين "يُنْتَخَبون" رؤساء مدى الحياة بنسبة تسعين أستغفر اللّه! تسعة وتسعين بالمائة على الأقل، من أصوات الشعب الذي لم ينتخب، والذين يفرضون سلطتهم على شعوبهم بقوّة السلاح وهم أكثر ما يكون عصياناً للهِ ولرسوله.

وراقبت الأمّةُ أبا بكر على الرغم من سابقته في الإسلام، وصحبته للرسول صلّى الله عليه وسلّم، وهجرته معه، (ثانِيَ اثْنَيْنِ إذْ هُما في الغار.) (التوبة ٤٠/٩)

إعترف المسلمون الأوائل لأبي بكر بالأفضلية عليهم في كل شيء، لهذا انتخبوه خليفة عليهم، رغم كل هذا لم يطلقوا له الحبل على الغارب، يحكم ويتصرّف كيف يشاء، فها هم قد فرضوا له معاشه السنوي من بينه نصف شاة في اليوم، وماكَسُوه في رأسها وبطنها، أي أنّهم لم يعطوه رأس الشاة وكرشها، ولم يعطوه كسوة جديدة حتى يردّ القديمة التي أبلاها. رحم اللهُ أبا بكر إنّه لم يفصّل ملابسه عند أشهر مُصَمِّمي الأزياء في العالم في باريس ولندن وغيرها من مدن العالم الغربي.

وهو رضي الله عنه وأرضاه، من ناحيته، لم يطمع بأموال الأمّة، يصرفها، ويبذّرها على شهواته،وشهوات عياله، كيف شاء، وكيف شاءوا، بل نراه، كما أوردنا، في اليوم التالي لانتخابه خليفة، يحمل بضاعته من الأقمشة على كتفه، ويتوَجّه إلى السوق للتجارة لإطعام عياله، حتى أرجعه المسلمون أنفسهم، وفرضوا معاشاً زهيداً له ولعياله.

ولمّا احْتُضِرَ أبو بكر رضي الله عنه قال: يا عائشة! أنْظُري اللَّقْحَة (الشاة) التي كنّا نشرب من لبنها، والجفنة التي كنّا نَصْطَبِغُ (نأكل) فيها، والقطيفة التي كنّا نلبسها، فإنّا كنّا ننتفع بذلك حين كنّا نَلِي أمر المسلمين، فإذا مِتُّ فارديه إلى

عمر. فلمّا مات أبو بكر أرسلت به إلى عمر. فقال عمر: رحمك الله يا أبا بكر! لقد أتعبت مَن جاء بعدك.[٧٩]

هكذا تصرّف الخليفة التقي النّقي المؤمن إيماناً صادقاً عندما كان يحسب حساباً للهِ تعالى وللأمّة التي كان يحكمها، أرجع الشاة والجفنة والقطيفة للأمّة.

وتبع عمرُ أبا بكر الصدّيق في قناعته وزهده في أموال الأمّة إلاّ ما يكفيه ويكفي عائلته، كما حدّده هو بنفسه لنفسه ولعائلته، حيث قال عندما سئل عمّا يحلّ له من مال المسلمين؟

"لا يحلّ لعمر من مال اللّه إلاّ حُلَّتين: حُلَّة للشتاء، وحُلَّة للصيف، وما أحجّ به وأعتمر، وقوتي وقوت أهلي كرجل من قريش ليس بأغناهم ولا بأفقرهم، ثمّ أنا بعد رجل من المسلمين."[٨٠]

ويروى أيضاً: أنّ عمر كان يستنفق كل يوم درهمين له ولعياله. وخرج يوماً حتى أتى المنبر، وكان قد اشتكى شكوى (أي مرض)، فنُعِتَ (وُصِفَ) له العسل، وكان في بيت المال عُكَّة عسل، فقال: إنْ أذنتم لي فيها أخذتها، وإلاّ فإنّها عَلَيَّ حرام. فأذنوا له فيها.[٨١]

الخليفة عمر بن الخطاب يستأذن الأمّة في عُكَّة من العسل، ليستعملها دواء لمرض أصابه، ولا يمسّها، حتى يأذن له المسلمون بذلك.

ولكن عندما فقدت الأمّة سلطتها على الحاكم، وأصبح الحاكم يحكم على هواه دون رقيب أو حسيب، كما فعل سلاطين بني أمية، وسلاطين بني العباس، ومن جاء بعدهم من السلاطين إلى يومنا هذا، نرى كما يُروى: أنّ هارون الرشيد، السلطان العبّاسي قد خلّف مائة ألف ألف دينار، ومن الأثاث والجوهر والوَرق (الفضّة) والدّوابّ ما قيمته مائة ألف ألف دينار وخمسة وعشرون ألف دينار.[٨٢]

٧٩ــ السيوطي، تاريخ الخلفاء، ص ٧٣.

٨٠ــ السيوطي، تاريخ الخلفاء، ص ص ١١٩-١٢٠.

٨١ــ ابن الجوزي، تاريخ عمر بن الخطاب، ص ١٢٣.

٨٢ــ السيوطي، تاريخ الخلفاء، ص ٢٧٥.

فمن أين جاء بها هارون الرشيد، وهو لم يتاجر، أو يزرع ؟
لقد ماتت سُنَّة أبي بكر الصدّيق، وسُنَّة عمر بن الخطاب، ولم يَعُد يعمل بها أحد من السلاطين، ولكن مازالت سُنّة هارون الرشيد حيَّة تُرْزَق، ويعمل بها حتى العصر الحاضر، وستبقى حَيَّة إلى الأبد حتى تستردّ الأمّة سلطتها، وتقف لحكامها بالمرصاد، وإلى الذين ينتظرون أن يأتي التغيير من السماء، نُذكّرهم بقول الله تعالى: (إنَّ اللهَ لا يُغَيِّرُ ما بقوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا ما بأنْفُسِهِمْ.) (الرعد ١١/١٣)
وقال سبحانه وتعالى: (ذَلِكَ بأنَّ اللهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّراً نِعْمَةً أنْعَمَها عَلَى قوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا ما بأنْفُسِهِمْ وَأنَّ اللهَ سَميعٌ عَلِيمٌ.) (الأنفال ٥٣/٨)

وهل هناك نعمة أكبر من الحريّة، والأمن، والعدل؟ لقد غيَّرت الأمّة الإسلاميّة، وتنازلت عن حقوقها لسلاطينها، فغيَّر الله سبحانه وتعالى النعمة التي أنعمها على الأمّة عندما كانت خَيْرَ أمَّةٍ أخْرِجَتْ للنّاس تَأمُرُ بالمَعْروفِ وَتَنْهى عَنِ المُنْكَرِ وَتُؤْمِنُ بالله.
هؤلاء هم خير القرون الذين حفظوا نعمة الله التي أنعمها عليهم، فوصفهم الله سبحانه وتعالى بقوله: (والسّابِقُونَ الأوَّلُونَ مِنَ المُهاجِرينَ وَالأنْصارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بإحْسانٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأعَدَّ لَهُمْ جَنّاتٍ تَجْري مِنْ تَحْتِها الأنْهارُ خالِدِينَ فيها أبَداً ذَلِكَ الفَوْزُ العَظِيمُ.) (التوبة ١٠٠/٩)

إنّ أبا بكر الصّدّيق رضي الله عنه لم يتوقف عن الاهتمام بأمر المسلمين حتّى وهو على فراش الموت، عندما جاءه المثنّى بن حارثة، قائد قوّات المسلمين في حربهم مع الفرس، يطلب مَدَداً للمسلمين في حربهم مع الفرس، فقدم المثنّى وقد شارف أبو بكر على الموت، وعقد الخلافة لعمر من بعده، فأخبره المثنّى الخبر، فقال: عَلَيَّ بعمر! فجاء. فقال له: إسمع يا عمر ما أقول لك، ثمّ اعمل به!
إنّي لأرجو أن أموت من يَوْمي هذا ـ وذلك يوم الإثنين ـ فإن أنا مِتُّ، فلا تُصْبحَنَّ حتى تَنْدُبَ الناس مع المثنّى، ولا تشغلنكم مصيبة وإن عظُمت عن أمر دينكم ووصيّة ربّكم. وقد رأيتموني مُتَوَفَّى رسول اللهِ صلّى الله عليه وسلّم وما صنعت،

ولم يُصَب الخَلْقُ بمثله. وباللهِ لو أنّي أنِي (أي أتوانى أو أتأخّر) عن أمر رسوله، لخذلنا، ولعاقبنا، فاضطرمت المدينة ناراً."[٨٣]

تُوُفّيَ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، ومن بعده أبو بكر الصّدّيق رضي الله عنه، ومن بعدهما عمر بن الخطاب رضي الله عنه، ولم يُعلَن الحِداد العامَ في الدّولة، ولم تُنكَّس الأعلام، ولم تُغلق الدوائر الرسمية، وغير الرسمية، والمدارس، والمرافق العامّة والخاصّة، في البلاد، كما يفعل حكّام مسلمي هذه الأيام.

قال حذيفة بن اليمان رضي الله عنه: دخلت على عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فرأيته مهمومًا حزينًا. فقلت: ما يُهمُّك يا أمير المؤمنين؟

فقال: أخاف أن أقع في منكر، فلا ينهاني أحد منكم تعظيمًا لي.

فقلت: والله! لو رأيناك خرجت عن الحق لنهيناك، فإن لم تنتهِ ضربناك بالسيف.

قال: ففرح عمر، وقال: الحمد لله الذي جعل لي أصحابًا يُقوِّمونني إذا اعوججت.[٨٤]

ويروى أنّ الخليفة الثاني، عمر الفاروق رضي الله عنه، قال في مجلس، وحوله المهاجرون والأنصار:

"أرَأيْتُمْ لَوْ تَرَخَّصْتُ في بَعْضِ الأُمُور، ما كُنْتُمْ فاعِلِينَ؟

فسكتوا. فقال ذلك مرّتين أو ثلاثاً.

فقال بشير بن سعد: لو فعلتَ ذلك قوَّمناك تقويم القِدْح (السهم).

فقال عمر: أنتم إذاً أنتم."[٨٥]

هنا يعطي الخليفةُ، عمر الفاروق، السلطة للأمّة، لكي تراقب تصرّفات الحاكم، لأنّه بشر، يصيب ويخطئ.

ولننظر ماذا فعل الخليفة بالرجل الذي صرّح له علانية وعلى رؤوس الأشهاد بأنّه وباقي الأمّة سيقوّمونه تقويم القِدْح. إنّه لم يفعل به شيئاً، بل حمد لهم موقفهم من تقويم اعوجاجه في بعض الأمور. ولحسن حظّ بشير بن سعد، ذلك المواطن

٨٣ــ الطبري، تاريخ، م ٣، ص ٤١٤.

84ــ القزويني، مختصر شعب الإيمان للبيهقي، ص ٢٢٠.

٨٥ــ ابن عساكر، مختصر تاريخ دمشق، ج ٥، ص ٢٢٤.

المسلم، أنّه عاش في أيام عمر بن الخطاب، لأنّه لو عاش في أيّام ملوك المسلمين ورؤسائهم "الملهمين!"، في العصر الحاضر، لذاق هو وعائلته من صنوف العذاب ما لم يذقه أحد من العالمين.

على أيّة حال، إنّ هذا الخليفة العظيم لم يحتج إلى أيّ أحد لكي يقوّم اعوجاجه، لأنّه سار على النهج القويم، نهج القرآن الكريم والسّنّة النّبويّة المطهّرة، وطبّق أوامرهما ونواهيهما على نفسه وعلى أهل بيته قبل أن يطبّقهما على أيّ فرد من أفراد الأمّة، كما روى حفيده، سالم بن عبد الله بن عمر، قال: "كان عمر إذا نهى الناس عن شيء جمع أهل بيته، فقال: إنّي نهيت الناس عن كذا وكذا، وإنّ الناس لينظرون إليكم نظر الطير إلى اللحم، وأيْمُ الله! لا أجد أحداً منكم فعله إلاّ أضعفت له العقوبة ضِعْفيْن."[٨٦]

عمل عمر كلّ هذا اقتداء برسول الله صلّى الله عليه وسلّم، الّذي طبّق الأحكام والشرائع على أهل بيته قبل أن يطبّقها على الأمّة، لنستمع إليه صلّى الله عليه وسلّم يقول في خطبة الوَداع: (ألا إنَّ كُلَّ شَيْءٍ مِن أمْرِ الجاهِلِيَّةِ تَحْتَ قدَمَيَّ مَوْضوعٌ، وَأوَّلَ دِماءِ الجاهِلِيَّةِ أضَعُ، دمُ إياس بن رَبيعَة بن الحارثِ بن عَبْدِ المُطَّلِبِ[٨٧] ـ كان مُسترْضَعاً في بَنِي سَعْدِ بن بَكْرٍ، فقتَلَتْهُ هُذَيْلٌ. وَربا الجاهِلِيَّةِ مَوْضُوعٌ كُلُّهُ، وَأوَّلَ رباً أضَعُهُ، ربا العبّاس بن عَبْدِ المُطَّلِبِ.)[٨٨]

واهتمام الحاكم برعيّته يتمثَّل خير تمثيل في قول عمر بن الخطاب: "لَوْ هَلَكَ حَمَلٌ[٨٩] مِنْ ولد الضأن ضياعاً بشاطئ الفرات، خشيت أن يسألني الله عنه."[٩٠]

٨٦ــ ابن أبي شيبة، المصنَّف؛ ابن سعد، الطبقات الكبرى، م ٣، ص ٢٨٩؛ السيوطي، تاريخ الخلفاء، ص ١٣٠.

٨٧ــ إياس هو ابن ابن عمّ رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم.

٨٨ــ المقريزي، إمتاع الأسماع، م ١، ص ص ٥٢٢-٥٢٣. العبّاس هو عمّ الرسول صلّى اللّه عليه وسلّم.

٨٩ــ في الطبقات الكبرى لابن سعد، م ٣، ص ٣٠٥، (جمل) بدلاً من (حمل من ولد الضأن).

٩٠ــ ابن أبي شيبة، المصنَّف.

حكم عمر بن الخطاب بالعدل، فأمن فنام دون حراسة، كما "شهد له الهرمزان لمّا استأذن على عمر بن الخطاب رضي الله عنه لم يجد عنده حاجباً ولا بوّاباً، فقيل له: هو في المسجد، فوجده مستلقياً، مُتَوَسِّداً كَوْماً من الحصباء ودِرَّته بين يديه. فقال له: عدلت، فأمنت، فنمت."[٩١]

ومن الجدير ذكره، أنّ عمر بن الخطاب رضي الله عنه لم يظلم حتى الحيوانات، بل نراه يشفق عليها، ويعطيها حقوقها من العناية، والراحة، لدرجة أنّه حرم نفسه أكل سمك اشتهاه، لأنّ غلامه أتعب الناقة في جلب السَّمك من مكان بعيد.

يروى أنّ عمر قال: لقد خطر على بالي شهوة السَّمك الطّريّ، فرحل غلامه يَرْفأ راحلته، وسار أربعاً مُقْبلاً ومُدْبراً، واشترى مِكْتَلاً (سلّة) من السمك، فجاء به، وعمد إلى الراحلة، فغسلها، فأتى عمر، فقال: إنطلق حتى أنظر إلى الراحلة، فنظر عمر وقال: نَسيت أن تغسل هذا العَرَق الذي تحت أُذُنَيْها، عذَّبت بهيمة في شهوة عمر! لا والله لا يذوقه عمر عليك بمكتلك![٩٢]

وعن عبيد الله بن عمر قال: مرَّ بعمر حمار عليه عشر لَبنات، فقام، فوضع عنه خمساً وترك عليه خمساً، وقال لصاحبه: إذا حملت عليه، فاحمل عليه هكذا.[٩٣]

كان عمر بن الخطاب في رحمته للبهائم، متَّبعاً، ومستنّاً بسنّة رسول الله صلّى الله عليه وسلّم الّذي حافظ على الحيوانات لدرجة لا يستطيع أيّ إنسان أن يقوم بها أو يتصوَّرها، فها هو صلّى الله عليه وسلّم وهو على رأس جيشه الّذي بلغ عشرة آلاف جندي بدوابّهم ومعدّاتهم في طريقه لفتح مكّة ينظر فيرى في منتصف الطريق كلبة تَهرُّ[٩٤] على أولادها، وهنَّ حولها يرضعنها، فأمر جُعَيْل بن سُراقة أن يقوم حذاءها، لا يَعْرض لها أحد من الجيش ولا لأولادها.[٩٥]

٩١ــ الطرطوشي، سراج الملوك، ص ٤٣.

٩٢ــ أحمد بن حنبل، فضائل الصحابة، تحقيق وصي اللّه بن محمد بن عباس، جامعة أمّ القرى، مكة المكرمة، ١٤٠٢ه/١٩٨٣م، م ١، ص ص ٣١٩-٣٢٠؛ السيوطي، تاريخ الخلفاء، ص ١٢٠.

٩٣ــ أحمد بن حنبل، كتاب فضائل الصحابة، م ١، ص ٣١٨.

٩٤ــ هَرَّت الكلبة = نبحت وكشرت عن أنيابها، تَذُبُّ عن جرائها وتدافع.

٩٥ــ المقريزي، إمتاع الأسماع، ج ١، ص ٣٦٦.

فهل يمكنكم أن تتصوَّروا قائد جيش في الدّنيا يحوِّل مسار جيش بمثل هذه الضخامة، عشرة آلاف مقاتل بدوابّهم ومعدّاتهم في طريق جبلية وعرة لكي يحافظ على كلبة وجراءها؟ لا أحد يعمل مثل هذا العمل سوى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم الّذي أرسله الله "رحمة للعالمين".

أمّا بالنسبة للعمّال، فإنّ الرسول صلّى الله عليه وسلّم راقبهم بكلّ دقة، وبذلك سنَّ سُنَّة حسنة لمن جاء بعده من الخلفاء والحكّام والسلاطين، لو كانوا يقتدون!
فها هو صلّى الله عليه وسلّم يحاسب أحد عمّاله، روى أبو حميد السّاعِديّ: "أنّ النبيّ صلّى الله عليه وسلّم استعمل رجلاً من الأزْد، يقال له، ابن اللُّتْبيّة، على الصَّدَقة، فجاء، فقال: هذا لكم، وهذا أهْدِيَ لي.
فقام النبيُّ صلّى الله عليه وسلّم على المنبر، فحمد الله، وأثنى عليه، وقال:
ما بالُ الْعامِلِ نَبْعَثُهُ، فَيَجِيءُ، فَيَقُولُ: هَذا لَكُمْ، وَهَذا أُهْدِيَ لِي. ألا جَلَسَ في بَيْتِ أُمِّهِ، أوْ أبيهِ، فَيَنْظُرُ، أيُهْدَى لَهُ، أمْ لا؟ لا يَأْتِي أحَدٌ مِنْكُمْ بِشَيْءٍ مِنْ ذلِكَ، إلاّ جاءَ بِهِ يَوْمَ الْقِيامَةِ، إنْ كانَ بَعِيراً فَلَهُ رُغاءٌ، أوْ بَقَرَةً فَلَها خُوارٌ، أوْ شاةً تَيْعَرُ.[٩٦]
ثمّ رفع يديه حتّى رأينا عُفْرَةَ إبْطَيْه، ثمّ قال: أللَّهُمَّ! هَلْ بَلَّغْتُ؟"[٩٧]

إنّ ابن اللتبيّة لم يتورّع عن قبول الهدايا، التي اعتبرها الرسول من باب الرشوة للعامل، ولكن أبا مسعود الأنصاري تورَّع عن ذلك ورفض العمل على الصدقة، كما روي عنه، قال: "بعثني النبيّ صلّى الله عليه وسلّم ساعِياً، ثمّ قال: إنْطَلِقْ أبا مَسْعُودٍ! ولا أُلْفِيَنَّكَ يَوْمَ الْقِيامَةِ تَجِيءُ وَعَلى ظَهْرِكَ بَعِيرٌ مِنْ إبِلِ الصَّدَقَةِ لَهُ رُغاءٌ قَدْ غَلَلْتَهُ.
قال: إذاً لا أنطلِق.
قال: إذاً لا أكْرِهُكَ."[٩٨]

٩٦ــ رُغاء البعير، وخُوار البقرة، ويُعار الشاة = صوتها.
٩٧ــ أبو داوود، سنن، ج ٣، باب هدايا العمّال، حديث ٢٩٤٦، ص ص ٣٥٤-٣٥٥.
٩٨ــ أبو داوود، سنن، ج ٣، باب في غلول الصدقة، حديث، ٢٩٤٧، ص ٣٥٦.

إنّ عمر سار على سُنّة الرسول صلّى الله عليه وسلّم بمراقبة العمّال، لدرجة أنّه تحمّل مسؤولية ظلم عمّاله وولاته للمواطنين، فيقول: "أيُّما عامِلٍ لي ظَلَمَ أحَداً، فَبَلَغَتْني مَظْلَمَتُهُ، فَلَمْ أغَيِّرْها، فأنا ظَلَمْتُهُ."[٩٩]

ومن ناحية أخرى، نراه يضع القيود والضوابط لِوُلاته كيف يجب عليهم أن يتصرّفوا مع المواطنين، وفي نفس الوقت شجَّع المواطنين على رفع شكاواهم إليه إذا وقع عليهم ظلم من قبل العمّال والولاة، كما روي عن أبي فراس، قال: خطب عمر بن الخطاب، فقال: "يا أيّها الناس! ألا إنَّما كُنّا نعرفكم، إذْ بين أظْهُرنا النّبيُ صلّى الله عليه وسلّم، وإذ ينزل الوحي، وإذ ينبئنا الله من أخباركم. ألا وإنّ النبيّ صلّى الله عليه وسلّم قد انطلق، وانقطع الوحي، وإنّما نعرفكم بما نقول لكم: مَن أظهر منكم خيراً، ظننّا به خيراً وأحببناه عليه. ومن أظهر لنا شرّاً، ظننّا به شرّاً وأبغضناه عليه. سرائركم بينكم وبين ربِّكم. ألا وإنّه قد أتى عليَّ حين، وأنا أحسب أنَّ من قرأ القرآنَ يريد الله وما عنده، فقد خُيِّلَ لي بأخَرَةٍ، أنّ رجالاً قد قرأوه يريدون ما عند الناس، فأريدوا الله بقراءتكم، وأريدوه بأعمالكم!

ألا وإنّي والله! ما أرسل عُمّالي إليكم ليضربوا أبْشارَكم (جلودكم)، ويشتموا أعراضكم، ويأخذوا أموالكم، ولكنّي استعملتهم ليعلّموكم كتابَ ربِّكم وسنّة نبيّكم، فمن ظلمه عامِلُهُ بمظلمة، فلا إذن له عليَّ ليرفعها إليَّ حتّى أقِصَّه منه.

فقال عمرو بن العاص: يا أمير المؤمنين أرأيت إنْ أدَّبَ أميرٌ رجلاً من رَعِيَّته، أتُقِصُّهُ منه؟

فقال عمر: وما لي لا أقِصّه منه وقد رأيت رسول الله صلّى الله عليه وسلّم يُقِصُّ من نفسه."[١٠٠]

يُرْوَى: "أنَّ رسول الله صلى الله عليه وسلّم عَدَّلَ صُفوفَ أصحابه يوم بدر، وفي يَده قِدْحٌ[١٠١] يُعَدِّل به القوْم، فمرَّ بسواد بن غزية وهو مُسْتَنْتِل من الصّفّ، فطعن في بطنه بالقِدْح، وقال: اسْتَوِ يا سواد!

٩٩ــ ابن سعد، الطبقات، م ٣، ص ٣٠٥.

١٠٠ــ ابن عساكر، مختصر تاريخ دمشق، ج ١٨، ص ٣٢٠.

فقال سواد: يا رسول الله! أوجعتني، وقد بعثك الله بالحقّ والعدل، فأقِدْني!
فكشف رسول الله صلّى الله عليه وسلّم عن بطنه، فقال: اسْتَقِد! فاعتنقه سواد، فقبَّلَ بطنه.
فقال: ما حَمَلَكَ على هذا يا سواد؟
قال: يا رسول الله! حضر ما ترى، فأردت أن يكون آخر العهد بك أن يَمَسَّ جلدي جِلدَك. فدعا له رسول الله صلّى الله عليه وسلّم بخير.[١٠٢]

ومرّة أخرى، نرى الرسول الكريم صلّى الله عليه وسلّم يُقِصُّ من نفسه يوم حُنَيْن، كما رُوِيَ عن عبد الله بن أبي بكر: "أنّ رجلاً من أصحاب النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم مِمَّن شهد معه حُنَيْناً، قال: والله إنّي لأسير إلى جنب رسول الله صلّى الله عليه وسلّم على ناقة لي، وفي رجْلي نَعْلٌ غليظة، إذ زحمت ناقتي ناقة رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، ويقع حرف نعلي على ساق رسول الله صلّى الله عليه وسلّم فأوجعه.
قال: فقرَعَ قدمي بالسّوْط، وقال: أوْجعتني! فتأخَّرْ عنّي!
فانصرفت. فلمّا كان من الغد، إذا رسول الله صلّى الله عليه وسلّم يلتمسني.
قال: قلت، هذا والله لِما كنت أصبتُ من رجْل رسول الله بالأمس!
قال: فجئته وأنا أتَوَقَّع (يعني خائف).
فقال لي: إنّك قد أصَبتَ رجْلي بالأمس، فأوجعتني، فقرعتُ قدَمَكَ بالسَّوْط، فدعَوْتك لأعَوِّضك منها.
فأعطاني ثمانين نعجة بالضّربة التي ضربني.[١٠٣]

صلّى الله عليك يا رسول الله! ما أكرمك، وما أحلمك! رجل آذاك، فضربته ضربة خفيفة واحدة بسوطك، فافتديتها بثمانين نعجة، فلا عجب، لأنّك كما وصفك ربُّك

١٠١ــ القِدح، هو القضيب الذي يوضع في نصل السهم.

١٠٢ــ ابن كثير، البداية والنهاية، م ٢، ج ٣، ص ص ٢٧٠-٢٧١؛ ابن سيِّد الناس، عيون الأثر، ج ١، ص ٢٥٥.

١٠٣ــ الطبري، تاريخ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، القاهرة، م ٣، ص ٩٣.

بقولـه: (لَقدْ جـاءَكُمْ رَسُـولٌ مِـنْ أنْفُسِكُمْ عَزيـزٌ عَلَيْـهِ مـا عَنِـتُّمْ، حَـريصٌ عَلَـيْكُمْ، بالمُؤْمِنِينَ رَؤوفٌ رَّحِيمٌ.) (التوبة ١٢٨/٩)

وقـال سبحانه وتعـالى يـصف رسـوله الكـريم بـاللين والرحمـة للمـؤمنين ويـأمره بالعفو عنهم والاستغفار لهم: (فَبِما رَحْمَةٍ مِّنَ اللّـهِ لِنْـتَ لَهُـمْ، وَلَـوْ كُنْـتَ فظّاً غَلِيظ القَلْبِ لانْفضُّوا مِنْ حَوْلِكَ، فاعْفُ عَنْهُمْ، وَاسْتَغْفِرْ لَهُـمْ، وَشـاوِرْهُمْ فـي الأمْـر، فَـإِذا عَزَمْتَ فتَوَكَّلْ عَلى اللهِ، إنَّ اللهَ يُحِبُّ المُتَوَكِّلِينَ.) (آل عمران ١٥٩/٣)

هذه أخلاق الرّسول الكريم صلّى الله عليه وسلّم وسُنَّته لِمَنْ أراد أن يستنَّ بسُنَّته من حكّام وملـوك وسلاطين المسلمين الـذين أصبح ضـرب المـسلمين وسـجنهم وتعـذيبهم علـى كـلِّ صـغيرة وكبيـرة، عـادة مـستحكمة لـديهم، وكـأنّ الله سـبحانـه وتعالى أنزل لهم قرآناً بذلك، وكأنّ الرسول الكريم صلّى الله عليه وسلّم ضرب لهم أسوأ الأمثـال علـى معاملـة الأمّـة. حاشـا للهِ! وحاشـا رسـوله الكـريم مـن أن يوصـيا بظلم أحد من المخلوقات.

لست أدري والله! بأوامر مَن يأتَمِر هؤلاء السلاطين؟ وبسُنَّة مَنْ يَستَنّون؟

وهذا عمر بن الخطاب رضي الله عنه الذي عمل بأوامر الله سبحانه وتعالى، وتَبِع سنَّة رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، يُقِيدُ من نفسه عندما كان يُسرع في عقاب رجل دون أن يتروَّى في البحث عن ذنبه.

قال سالم بن عبد الله بن عمر بن الخطاب: "نظر عمر إلى رجل قد أذنب ذنْباً، فتناوله بالدِّرَّة.

فقال الرجل: يا عمر! لئن كنتُ أحسنتُ فقد ظلمتني، وإن كنتُ أسأتُ فما علّمتني!

قال: صدقتَ، فاستغفر الله لي! دونَكَ فاقْتَدْ[١٠٤] من عمر!

فقال الرجل: أهَبُها للهِ، وغفر الله لي ولَكَ."[١٠٥]

١٠٤ــ إقتد من عمر: أي اقتَصَّ منه، من القَوَد وهو القصاص.

١٠٥ــ ابن الجوزي، تاريخ عمر بن الخطاب، تحقيق أسامة عبد الكريم الرفاعي، دمشق، ١٩٧٤، ص ١٣٥.

وها هو عمر رضي الله عنه يكتب إلى أمراء الأجناد موصياً إيّاهم بحُسن معاملة المسلمين وعدم ظلمهم: "لا تَضْربوا المُسْلِمينَ فَتُذِلُّوهم! ولا تَحْرِمُوهم فتُكَفِروهُم! ولا تُجَمِّروهم[١٠٦] فَتَفْتِنوهم! ولا تُنْزِلوهم الغِياضَ فتُضَيِّعوهم."[١٠٧]

إنّ تجمير البعوث أضرّ بالناس، خاصّة النساء اللّواتي افتقدن أزواجهنّ لطول الغياب فشكَون أمرهنّ إلى الله، ولكن عين عمر الساهرة لم تغفل عنهنّ، إذ كان من عادة عمر أن يطوف باللّيل يتفقّد أحوال الرّعيّة وهم لا يشعرون ليكتشف مشاكلهم التي لا تصله لسبب أو لآخر ليعمل على حلّها. لا أن يتجسّس عليهم ليعرف أيّهم مخلصاً لسلطانه وأيّهم يتآمر عليه ليقلب حكمه، فيعتقله وينكِّل به وبأهله، كما يفعل حكّام المسلمين في هذا الزمان، فأنشأوا ما يُسمَّى "جهاز أمن الدولة" الذي أجهز على كرامة المواطنين الذين يُشَكُّ في إخلاصهم للحاكم الصنم.

فبينما عمر يطوف ذات ليلة، سمع امرأة تقول:

تَطاولَ هذا اللَّيْلُ وَاسْوَدَّ جانِبُه وَأرَّقَنِي أنْ لا خَلِيلَ ألاعِبُه

فَلَوْلا حَذارُ اللهِ لا شَيْءَ مِثْلُهُ لَزُحْزِحَ مِنْ هذا السَّرير جَوانِبُه

فقال عمر: ما لَكِ؟

قالت: أغزَيْتَ زوجي منذ أشهر، وقد اشتقت إليه.

فقال: أرَدْتِ سوءاً؟

قالت: مَعاذَ اللهِ!

فقال: فامْلِكي عليكِ نفسَكِ، فإنّما هو البريد إليه.

ثمّ دخل على ابنته حفصة أمّ المؤمنين، فقال: إنّي سائلك على أمر قد أهمّني، فافرجيهِ عنّي! كم تشتاق المرأة إلى زوجها؟

فخفضت رأسها واسْتَحْيَت.

قال: فإنَّ الله لا يَسْتَحْيي من الحقِّ!

فأشارت بيدها، ثلاثة أشهر، وإلاّ فأربعة أشهر.

١٠٦ــ التجمير، هو إطالة مدّة الجند في الغزو بعيداً عن أهله أكثر ممّا يستطيع أن يتحمّل.

١٠٧ــ ابن سعد، الطبقات، م ٣، ص ٢٨١.

فكتب عمر أن لا تُحبس الجيوش فوق أربعة أشهر.[١٠٨]

لقد وقف عمر بن الخطاب لِوُلاته بالمرصاد ومنعهم من التّعَدِّي على أيّ واحد من الرّعِيَّة، مسلماً كان أو غير مسلم، لا فرق بين شريف أو وضيع، كما روي عن طاوس، أنّ عمر بن الخطاب قال: "أرَأيْتُم إذا اسْتَعْمَلْتُ عَلَيْكُم خَيْرَ مَنْ أعْلَمُ، ثُمَّ أمَرْتُهُ بالعَدْل، أفقضَيْتُ ما عَلَيَّ؟ قالوا: نَعَم. قال: لا، حَتّى أنْظُرَ في عَمَلِهِ، أعَمِلَ بَما أمَرْتُهُ أمْ لا!"[١٠٩]

ونظر عمر رضي الله عنه في عمل عمّاله، وحاسبهم حتى على أيّ كلام مُنافٍ للإسلام صدر عنهم، حتى ولو أنّهم لم يرتكبوا ما نطقوا به، كما فعل بالنعمان بن عديّ الذي وَلاّه مَيْسان، فقال:

ألا أبلِغ الحسناءَ أنّ حَليلها ... بمَيسان يُسقى في زجاج وحَنْتَم
إذا شئتُ غنّتني دَهاقينُ قرية ... وصَنّاجةٌ تجذو على كلّ مَنسِم
لعلَّ أميرَ المؤمنين يسوءه ... تنادمنا بالجَوْسَق المتهدِّم
إذا كنت نديماني فبالأكبر فاسْقِني ... ولا تَسْقِني بالأصغر المتثلّم

فلمّا بلغ عمرَ رضي الله تعالى عنه، قال: والله! إنّه ليسوءني تنادمهم، فمن لَقِيه فليعلمه أنّي قد عزلته. وكتب في عزله.

فلمّا قدم عليه، قال: والله! يا أمير المؤمنين، ما صنعت شيئاً ممّا ذكرتُ، ولكنّني امرُؤ شاعر، أصبتُ فضلاً من قوْل، فقلتُه.

فقال عمر: والله! لا تعمل لي عملاً أبداً.[١١٠]

كذلك فعل معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنهما مع عامل له نطق بكلام ما كان له أن ينطق به أمام الناس.

"استعمل معاويةُ رجلاً من بني كلب، فذُكِرَ يوماً المجوس، وعنده الناس، فقال: لعن اللهُ المجوسَ ينكِحونَ أمّهاتِهم، واللهِ! لو أعطِيتُ مائة ألف درهم ما نكحتُ

١٠٨ــ السيوطي، تاريخ الخلفاء، ص ص ١٣٢-١٣٣.

١٠٩ــ ابن عساكر، تاريخ دمشق، ج ١٨، ص ٣٢١.

١١٠ــ البلاذري، أنساب الأشراف، تحقيق محمد حميد اللّه، دار المعارف بمصر، م ١، ص ٢١٧.

أمّي! فبلغ ذلك معاوية، فقال: قاتله اللهُ! أتُرَوْنَهُ لو زادوه على مائة ألف فعل؟ فعَزَلَهُ."[١١١]

كذلك وقفت الرعيّة لولاتها بالمرصاد ولم يتركوا واحداً من الولاة حتى ولو كانوا من صحابة رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، من أمثال عمرو بن العاص وأبي موسى الأشعريّ يظلمهم ولو بكلمة دون أن يرفعوا أمره إلى الخليفة يطلبون حقّهم مهما صَغُرَ من الوالي الذي اعتدى عليهم وانتقصهم حقّهم، كما تروي لنا الروايات التالية:

عن جرير بن عبد الله البُجَليّ: أنّ رجلاً كان مع أبي موسى الأشعريّ، وكان ذا صوت ونكاية في العدوّ، فغَنِموا مغنَماً، فأعطاه أبو موسى بعضَ سهمه، فأبى أن يقبله إلاّ جميعاً. فجَلَدَه أبو موسى عشرين سَوْطاً وحَلَقه. فجمع الرجل شَعْرَه، ثمّ ترحَّل إلى عمر بن الخطاب، حتى قدم عليه، فدخل على عمر.

قال جرير بن عبد الله: وأنا أقرب الناس من عمر، فأدخل يده، فاستخرج شَعْرَه، ثمّ ضرب به صدرَ عمر بن الخطاب، فقال: أما والله لولا...

فقال عمر: صدق لولا النار.

فقال: يا أمير المؤمنين! إنّي كنت ذا صوت ونكاية في العدوّ، وأخبره بأمره. وقال: ضربني أبو موسى عشرين سوطاً، وحلق رأسي، وهو يرى أن لا يقتصّ منه.

فقال عمر: لأنْ يكون الناس كلّهم على صَرامَة هذا أحبّ إليَّ من جميع ما أفاء اللهُ عليَّ.

فكتب عمر إلى أبي موسى: سلام عليكم! أمّا بعد! فإنّ فلاناً أخبرني بكذا وكذا، فإنْ كنت فعلت ذلك في مَلإٍ من الناس، فعزمت عليك لما قعدتَ له في ملإٍ من الناس حتى يَقْتَصَّ منك! وإنْ كنت فعلت ذلك في خَلاء من الناس، فاقعد له في خلاء من الناس حتى يقتصَّ منك!

فقدم الرجل، فقال له الناس: أعفُ عنه!

فقال: لا واللهِ! لا أدَعُه لأحد من الناس!

---

[١١١]ــ الجاحظ، البيان والتبيين، تحقيق عبد السلام هارون، ج ٢، ص ٢٦٠.

فلمّا قعد أبو موسى ليقتصَّ منه، رفع الرجل رأسه إلى السماء، ثمّ قال: أللّهمَّ قد عَفَوْتُ عنه![112]

ويروى، أنّ عمرو بن العاص، قال لرجل من تُجيب: يا مُنافِق!
فقال التُّجيبيّ: ما نافقت منذ أسلمت، ولا أغسل لي رأساً ولا أدهنه حتى آتي عمر، فأتى عمر.
فقال: يا أمير المؤمنين! إنّ عَمْراً نَفَّقني، ولا والله! ما نافقت منذ أسلمت.
فكتب عمر إلى عمرو ـ وكان إذا غضب كتب إليه العاصي بن العاصي ـ أمّا بعد! فإنّ فلاناً التُّجيبي ذكر أنّك نفَّقته، وإنّي أمرته إنْ أقام عليك شاهدين أنْ يضربك أربعين أو سبعين.
فقام، فقال: أنْشُدُ اللهَ رجلاً سمع عَمْراً نَفَّقني إلاّ قامَ!
فقام عامَّة أهل المسجد.
فقال له حَشَمُه (يعني حشم عمرو): أتريد أن تضرب الأمير؟
قال: وعرض عليه الأرْش (أي الفدية).
فقال: لو ملأت لي هذه الساحة ما قبلت.
فقال له حشمه: أتريد أن تضرب الأمير؟
فقال: ما أرى لعمرو ها هنا طاعة.
فلمّا أبى، قال عمرو: أتركوه!
فأمكنه من السَّوْط، وجلس بين يديه.
فقال: أتَقْدِرُ أن تمتنع عنّي بسلطانك؟
قال: لا. قال: فامْضِ لما أمِرْتَ به!
قال: فإنّي أدَعُكَ للهِ.[113]
هذا فِعْلُ عمر مع الرعايا من المسلمين، وفِعْله مع الرعايا من أهل الذّمّة لم يختلف في شيء عن فِعْله مع المسلمين، كما تخبرنا الروايات التالية:

١١٢ــ ابن الجوزي، تاريخ عمر بن الخطاب، ص ١١٥.

١١٣ــ ابن الجوزي، تاريخ عمر بن الخطاب، ص ص ١١٥-١١٦.

قال أبو عمران الجوني: "جاء يهوديّ إلى عمر بالشام، فقال: يا أمير المؤمنين! أهذا في العدل، أخذتم كَسْبي وأنا قويّ، حتّى إذا ما كبرتْ سِنّي، وضعفت رُكْبَتَي، تركتموني أهلك ضَيْعة؟

فقال عمر: ما أنصفناك. ففرض له فريضة، وأمر عامله أن يجريها شهراً بشهر."[١١٤]

وهكذا نرى أنَّ عمر بن الخطاب رضي الله عنه أوَّل رئيس دولة في التاريخ أنشأ نظام التكافل الاجتماعي لكل المواطنين في الدولة الإسلامية وأجراه على المسلمين وغير المسلمين.

وروي عن أنس بن مالك، قال: "بينما أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه قاعد، إذ جاءه رجل من أهل مصر، فقال: يا أمير المؤمنين! هذا مقام العائذ بك.

فقال عمر: لقد عُذْتَ بمُجيب، فما شأنك؟

قال: سابقت على فرسي ابناً لعمرو بن العاص - وهو يومئذ أمير على مصر - فجعل يُقنِّعُني بسَوْطه[١١٥] ويقول: أنا ابن الأكرمين! فبلغ ذلك عمراً أباه، فخشي أن آتيك، فحبسني في السجن، فانفلتُّ منه، وهذا حين أتيتك.

فكتب عمر بن الخطاب إلى عمرو بن العاص: إذا أتاك كتابي هذا فاشهد المَوْسم أنت وولدك فلان. وقال للمصري: أقِمْ حتى يأتيك!

فقدم عمرو فشهد الحجّ، فلمّا قضى عمر الحجّ وهو قاعد مع الناس، وعمرو بن العاص وابنه إلى جانبه، قام المصري، فرمى إليه عمر رضي اللّه عنه بالدِّرَّة.

قال أنس: ولقد ضربه ونحن نشتهي أن يضربه، فلم ينزع حتى أحببنا أن ينزع من كثرة ما ضربه، وعمر يقول: إضرب ابن الأكرمين!

قال يا أمير المؤمنين قد استوفيت واشتفيت.

قال: ضعها على صَلْعَة عمرو!

١١٤ــ أبو حيان التوحيدي، البصائر والذخائر، م ٣، ق ١، ص ١٠٣.

١١٥ــ قَنَّعه بالسوط، أي ضربه على رأسه.

فقال: يا أمير المؤمنين! قد ضربت الذي ضربني.
قال: أما واللّه! لو فعلت لما منعك أحد حتى تكون أنت الذي تَنْزع. ثمّ قال:
"مَتَى اسْتَعْبَدْتُمُ النّاسَ وَقد وَلَدَتْهُمْ أُمَّهاتُهُمْ أحْراراً!"[١١٦]

من هذه القصة والقصة التي تليها نجد أنّ عمر بن الخطاب رضي الله عنه قد أنصف أهل الذمّة من عمّاله ووُلاته عندما اعتدوا على حقوقهم، وليس الرعايا المسلمين فقط، لأنّ العدل في الإسلام يَسَعُ الجميع، ويُظِلُّهم بظِلِّهِ.
"أخبر دِهْقان السَّيْلَحَيْن، قال: كان لسعيد بن مالك إلى جنبي ضَيْعَة، وكان رجلاً حديداً (أي سيِّء الطَّبْع)، فأتيته، فقلت له: أعْدِنِي على نفسك! فأمر بي، فوُجِئْتُ (أي دُفِعت) في عُنُقي.
فقلت: لأرحلنَّ إلى عمر. فدخلت على امرأتي، فأعلمتها ذلك.
فقالت: إنّي أخاف أن لا تصنع شيئاً، ويجترئ عليك.
فقلت: إنّي أكره أن تَحَدَّثَ العجم بأنّي قلت شيئاً لم أفعله.
قال: فخرجت حتى قدمت المدينة، فسألت عن عمر رحمه الله، فدُلِلت عليه، وأرشدت إليه، فلمّا أتيت منزله، دخلت، فإذا عمر رضي الله عنه جالس على عباءة، فرفع رأسه إليَّ وقال: كأنّك لست من أهل المِلّة (مسلم)!
فقلت: أنا رجل من أهل الذّمَّة.
فقال: فما حاجتك؟
قلت: لسعيد بن مالك ضيعة إلى جانبي، وإنّي أتيته أستعديه على نفسه، فأمر بي فوُجِئت في عنقي، فقلت: لأرحلنَّ إلى عمر.
فقال عمر: يا يَرْفأ! إئتني بالدواة والمكتب!
فأتاه بجراب، فأدخل يده، وأخرج صحيفة، فكتب فيها، ثمّ أخرج سَيْراً يشدّها به فلم يقدر عليه، فتناول خيطاً من العباءة التي تحته وقد تنشَّرت جوانبها، فشدَّها به، فأردت أن لا آخذها، ثمّ تناولتها متثاقلاً، فكأنّه عرف ما في نفسي، فقال: إئْتِهِ!

---

[١١٦]ــ محمد بن طلحة الوزير، العقد الفريد للملك السعيد، ص ص ٥٩-٦٠؛ الموسوي، نزهة الجليس، م ١، ص ٢٥٢.

فإن كفاك وإلاّ فأقِمْ واكتب إليَّ! قال: فخرجت حتى قدمت على أهلي، فقالوا: ما صنعت؟ قلت: أتيت رجلاً لم يقدر على سَيْرٍ يشدّ به صحيفته حتى تناول خيطاً من عباءة كانت تحته قد تفزَّرت وتنشَّرت جوانبها، فشدَّها به.

قالوا: وما عليك من ذلك إن نفَّذ أمره؟

قال: فأتيت سعيداً، فناولته الكتاب، فلمّا قرأه أرْعِدَت فرائصه (أي ارتجف خوفاً) حتى سقط الكتاب من يده، وقال: وَيْلَكَ ما صنعت؟ اذهب! فالأرض لك. فقلت: لا أقبلها! فقال: لا والله! لا أخذتها أبداً.

قال: وكان نسخة الكتاب:

بسم الله الرحمن الرحيم

من عبد الله عمر أمير المؤمنين، إلى سعيد بن مالك!

سلامٌ عليك! أمّا بعد! فإنّ مهرزاد دهقان السَّيْلَحَيْن ذكر أنّ له ضيعة إلى جانبك، وأنّه أتاك يستعديك على نفسك، فأمرت به فوُجِئَت عنقه، فإذا جاءك كتابي هذا فأرضه من حقّه، وإلاّ أقبل إليَّ راحلاً! والسلام."[١١٧]

وعندما انقطع المطر، وأجدبت الأرض، وشَحَّت الموارد الغذائية عام الرَّمادة في أيّام الخليفة عمر، جاع الناس، فكان عمر يقول: "بئس الوالي إن أنا شبعت والناس جياع."[١١٨]

عن ابن طاووس، عن أبيه، قال: أجدب الناس على عهد عمر، فما أكل سميناً ولا سمناً، حتى أكل الناس.[١١٩]

وقال يزيد بن أسلم عن أبيه: كنّا نقول، لو لم يرفع الله عام الرمادة، لظننّا أنَ عمر يموت هَمّاً بأمر المسلمين.[١٢٠]

١١٧ــ البيهقي، المحاسن والمساوئ، ص ٤٩٤.

١١٨ــ ابن كثير، البداية والنهاية، م ٤، ج ٧، ص ١٣٩.

١١٩ــ ابن الجوزي، تاريخ عمر، ص ٨٨.

١٢٠ــ ابن الجوزي، تاريخ عمر، ص ٨٨.

اهتمام عمر برعيته يتمثل خير تمثيل بالرسالة التي كتبها إلى عمرو بن العاص عندما نجا من القتل على يَدَيْ بطريق غزَّة لمّا دخل إليه متخفّياً ليتفاوض معه، كتب إليه عمر: "الحمد لله على إحسانه إلينا، وإيّاك والتغرير بنفسك، أو بأحد من المسلمين في هذا أو شبهه، وبحسب العِلْج منهم أن يُكَلَّم في مكان سواء بينك وبينه، فتأمن غائلته، ويكون أكسر.

فلمّا قرأ عمرو بن العاص كتاب عمر، ترحَّم عليه، ثمّ قال:

ليس الأبُ البَرُّ بولده بأبَرَّ من عمر بن الخطاب برعيّته."[١٢١]

وراقب عمر بن الخطاب عمّالَه ووُلاتَه مراقبة دقيقة ووضع عليهم الشروط قبل تعيينهم في مناصبهم. قال خزيمة بن ثابت: كان عمر إذا استعمل عاملاً، كتب له، واشترط عليه أن لا يركب برذوناً، ولا يأكل نَقِيّاً، ولا يلبس رقيقاً، ولا يُغلق بابه دون ذوي الحاجات، فإنْ فعل فقد حلَّت عليه العقوبة.[١٢٢]

وكان عمر إذا ولّى وُلاتَه، أمرهم، فكتبوا أموالهم، منهم سعد بن أبي وقاص، فشاطرهم عمر في أموالهم، فأخذ نصفاً وأعطاهم نصفاً.[١٢٣]

ومَرَّ عمر رضي الله عنه ببنيان يُبنى بآجُرّ وجَصّ، فقال: لِمَن هذا؟ قيل: لعاملك على البحرين. فقال: أبَتِ الدراهم إلاّ أن تُخْرج أعناقها. فأرسل إليه، فشاطره ماله.[١٢٤]

ورُوِيَ، أنّه دعا عاملاً له يُدعى الحارث بن كعب بن وهب، فقال له: ما قِلاص (إبل) وأعبُد بعْتَها بمائتي دينار؟ قال: خرجتُ بنفقة معي، فتَجِرت فيها. فقال عمر: أما والله! ما بعثناكم لِتَتَّجِروا في أموال المسلمين، أدِّها! فقال: أما والله! لا عملتُ عملاً بعدها أبداً! قال عمر: انتظر حتّى أستعملك![١٢٥]

١٢١ــ ابن عساكر، مختصر تاريخ دمشق، م ١٩، ص ٢٤١.

١٢٢ــ السيوطي، تاريخ الخلفاء، ص ١٢٠.

١٢٣ــ السيوطي، تاريخ الخلفاء، ص ١٣٢.

١٢٤ــ ابن عبد ربّه، العقد الفريد، م ١، ص ٤٤.

١٢٥ــ ابن عبد ربّه، العقد الفريد، م ١، ص ٤٦.

وكان عمر بن الخطاب إذا قدم عليه الوفد سألهم عن حالهم وأسعارهم وعمَّن يعرف من أهل البلاد وعن أميرهم، هل يدخل عليه الضعيف؟ وهل يعود المريض؟ فإن قالوا: نعم، حمد الله تعالى، وإن قالوا: لا، كتب إليه: أقبِلْ!"[١٢٦]

وقال عمر بن الخطاب: مَن استعمل رجلاً لِمَوَدَّة أو لقرابة، لا يشغله إلاّ ذلك، فقد خان اللهَ ورسولَه والمؤمنين.

وقال أيضاً: مَن استعمل فاجراً، وهو يعلم أنّه فاجر فهو مثله.[١٢٧]

وروى أبو حيّان التوحيدي صفة عمر بن الخطاب، كما وردت على لسان ثابت بن قُرَّة، الحرّاني، الصابئ، الفيلسوف، قال:

"فُضِّلت أمّة محمد صلّى الله عليه وسلّم العربي على جميع الأمم الخالية بثلاثة[١٢٨] لا يوجد فيمن مضى مثلهم:

بعمر بن الخطاب في سياسته، فإنّه قلَّم أظفار العجم، ولطُفَ في إيالة العرب، وتأتّى لتدبير الحروب، وأشبع بطون العرب، وألبس الدِّينَ جِلباباً، وفتح له أبواباً، وهيَّأ له شرائط وأسباباً، ثمّ لم يرزأ من الغنائم والفتوح شيئاً، وصحب عُمْرَهُ بالقناعة التي لا تُجيبُ إليها نفسٌ، مع القُدْرة والتمكين والسلطان والسَّطوة والهيبة والطاعة والإجابة، ومَزَجَ الدنيا بالدّين، وأعان الدِّينَ بالدّنيا، وداری في موضع المُداراة، ومارى في موضع المُماراة، وأظهر الضعف مع قوَّة، وأظهر القوَّة مع رأفة، وأظهر الرّأفة مع التقصّي، فدانت له القلوب، وذلّت له الرِّقاب، وتناجت القلوب بمحبَّته، وتناصرت الألسنة بالثناء عليه، نومُه لليقظة، وراحتُه للدَّأب، وقسوته للرّحمة، ومنعُه للعطاء، وصَمتُه للعِبْرة، وقولُه للفائدة، ومشيه للإغاثة، يَنْفُضُ الليل بنفسه، ويعترف في كلّ أمر بتقصيره، ولا يرضى ببذل مجهوده، نقّاب يحدِّث بالغائب، إن ارْتَأى لم يقُل، وإن قال لم يَخَلْ، وإن تواضع لم يَذِلّ، أحواله تتناسب، وأموره تتشابه، ليله كنهاره، وسِرُّه كإجهاره، وإبطانه

١٢٦ــ ابن قتيبة، عيون الأخبار، ج ١، ص ١٤.

١٢٧ــ ابن الجوزي، تاريخ عمر بن الخطاب، ص ص ٩٤-٩٥.

١٢٨ــ نكتفي هنا بما قاله عن عمر بن الخطاب فقط، لأنه هو الذي يعنينا.

كإظهاره، وعلانيته كإسراره، لا يَقْفُوهُ قافٍ وإن تقصَّى السّداد، ولا يلحقه لاحق وإن ركَضَ الجواد."[١٢٩]

عمل عمر ما عمل بالنسبة للولاة والعمّال اتّباعاً لسُنَّة رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، حيث قال كما يروى عنه صلّى الله عليه وسلّم: "إنّي لأُوَمِّرُ الرَّجُلَ على القَوْمِ فيهمْ مَنْ هُوَ خَيْرٌ مِنْهُ، لأنَّهُ أيْقَظُ عَيْناً، وَأبْصَرُ بَالحَرْبِ. "[١٣٠]
وقال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: "مَنْ وَلِيَ مِنْ أمْرِ المُسْلِمينَ شَيْئاً، فأمَّرَ عَلَيْهِمْ أحَداً مُحاباةً، فعَلَيْهِ لَعْنَةُ الله، لا يَقْبَلُ اللهُ مِنْهُ صَرْفاً ولا عَدْلاً[١٣١] حَتّى يُدْخِلَهُ جَهَنَّمَ."[١٣٢]
وطبّق الرسول الكريم صلّى الله عليه وسلّم هذا المبدأ السامي، عندما استعمل عمرو بن العاص على جيش ذات السلاسل، وفيهم أبو بكر وعمر.
وقال أبو بكر: إنّما ولاّه النبيّ صلّى الله عليه وسلّم، يعني عمراً لعلمه بالحرب.[١٣٣]
لقد أثبت عمرو بن العاص جدارته في القيادة العسكرية لرسول الله وللمسلمين، حيث رُوي: "أنّ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم بعث عمراً في غزوة ذات السلاسل، فأصابهم برد، فقال لهم عمرو: لا يُوقِدَنَّ أحدٌ ناراً. فلمّا قدِمَ شَكَوْهُ. قال: يا نبيَّ الله! كان فيهم قِلَّة، فخشيت أن يرى العدوُّ قِلَّتهم، ونهيتهم أن يتبعوا العدو مخافة أن يكون لهم كمين. فأعجب ذلك رسول الله صلّى الله عليه وسلّم."[١٣٤]
مرة ثانية ينقذ عمرو بن العاص جيش المسلمين من هزيمة كادت تقع لولا فراسته وعلمه بالحرب، عن موسى بن عمران بن مناح، قال: "لمّا رأى عمرو بن العاص يوم اليرموك صاحب الراية ينكشف بها، أخذها، ثم جعل يصيح: إليَّ يا

١٢٩ــ أبو حيان التوحيدي، البصائر والذخائر، تحقيق وداد القاضي، م ١، ص ص ١٩٠-١٩١.

١٣٠ــ ابن عساكر، مختصر تاريخ دمشق، ج ١، ص ١٥٧.

١٣١ــ لا صرفاً ولا عدلاً، أي لا توبة ولا فدْية.

١٣٢ــ رواه الحاكم؛ وانظر الأربعين العسقلانية، الحديث الخامس، ص ٢٥.

١٣٣ــ الذهبي، تاريخ الإسلام، المجلد الأوّل، السفر الثاني، تحقيق محمد محمود حمدان، دار الكتاب المصري، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤٠٥هـ ــ ١٩٨٥م، ص ٤٣٠؛ الذهبي، سير أعلام النبلاء، م ٣، ص ٦٧.

١٣٤ــ ابن عساكر، مختصر تاريخ دمشق، م ١٩، ص ٢٣٧؛ الذهبي، سير أعلام النبلاء، م ٣، ص ٦٦.

معاشر المسلمين! فجعل يطعن بها قُدُماً وهو يقول: اصنعوا كما أصنع! حتى إنّه ليرفعها وكأنّ عليها ألسِنَة المطر من العلق."[١٣٥]

لقد بيّن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم الجانب السلبي من الإمارة لمن لا يُحسن التصرف بها بالعدل كما أمره الله سبحانه وتعالى، وكما أمر، وبيَّنَ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم.

رُويَ عن يزيد بن الأصمّ، قال: سمعت عَوْف بن مالك في مسجد رابق (رابح) يقول: قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: "إنْ شِئْتُمْ أنْبَأْتُكُمْ عَن الإمارَةِ وَما فيها؟"

فقمتُ، فناديت بأعلى صوتي: ما هي يا رسول الله؟

قال: أوَّلُها مَلامَةٌ، وثانيها نَدامَةٌ، وَثالِثُها عارٌ يَوْمَ القِيامَةِ إلاّ مَنْ عَدَلَ. وَكَيْفَ يَعْدِلُ مَعَ أقاربِهِ؟"[١٣٦]

كذلك حذّر رسول الله صلّى الله عليه وسلّم الولاة والحكّام من أن يميلوا مع الأغنياء بقضاء حاجاتهم بسرعة، ومن التسويف والمماطلة في قضاء حاجات الفقراء، كما روي عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: "إيّاكُمْ وَالإقرادَ!

قالوا: يا رسول الله! وما الإقرادُ؟

قال: يَكُونُ أحَدُكُمْ أميراً، أوْ عامِلاً، فتَأْتِيهِ الأرْمَلَةُ وَالمِسْكِينُ، فيُقالُ لَهُ: انْتَظِرْ حَتّى يُنْظَرَ في حاجَتِكَ، فيَكُونوا مُقْرِدِينَ لا تُقْضَى لَهُمْ حاجَةٌ، وَلا يُؤْمَرُوا فيَنْصَرِفُوا، وَيَأْتي الرَّجُلُ الغَنِيُّ وَالشَّرِيفُ، فيُقْعِدُهُ إلى جَنْبِهِ، ثُمَّ يَقُولُ: ما حاجَتُكَ؟ فيَقُولُ: كَذا وَكَذا، فيَقُولُ: اقْضُوا حاجَتَهُ وَعَجِّلُوا بها."[١٣٧]

وتبع زياد بن أبي سفيان سنّة الرسول صلى الله عليه وسلّم وسنّة عمر بن الخطاب رضي الله عنه في تولية الولاة الأعمال الإدارية المختلفة، فكان إذا ولّى رجلاً

١٣٥ــ العلق = الدّم. ابن عساكر، مختصر تاريخ دمشق، م ١٩، ص ٢٤١.

١٣٦ــ الطبراني، مسند الشاميّين، م ٢، ص ٢٠٦، حديث ١١٩٥.

١٣٧ــ الطبراني، مسند الشاميين، م ٢، ص ص ٣٣-٣٤، حديث ٨٦٦.

عملاً، قال له: "خُذْ عهدك، وسِرْ إلى عملك، واعلم أنّك مصروف رأس سنتك، وأنت تصير إلى أربع خِلال، فاختر لنفسك:
إنّا إن وجدناك أميناً ضعيفاً، استبدلنا بك لضعفك، وسلّمتك من مَعَرَّتنا أمانتُك.
وإن وجدناك قويّاً خائناً، اسْتَهَنّا بقوّتك، وأحْسَنّا على خيانتك أدبك، وأوجعنا ظهرك، وأثقلنا غُرمك.
وإن جمعت علينا الجُرمَيْن، جمعنا عليك المَضَرَّتين.
وإن وجدناك أميناً قويّاً، زدنا في عملك، ورفعنا ذِكْرك، وكثّرنا مالك، وأوطأنا عَقِبَك."[١٣٨]

فليقارن هذا بتصرّفات سلاطين المسلمين في العصر الحاضر الذين يُوَلّون أقاربهم، ومحاسيبهم، والمخلصين لهم شخصيّاً، في المناصب الإدارية في الدولة دون النظر إلى كفاءاتهم أو عدمها، ويتركون لهم الحبل على الغارب يتصرّفون مع المواطنين كما يحلو لهم دون رقيب أو حسيب أو وازع من دين أو ضمير أو خُلُق.

إنّ اهتمام الخلفاء الراشدين المهديين بالرعيّة ومساواتهم لهم بأنفسهم في الجوع والشبع، والضيق والسّعة، تعدّاهم إلى القادة والولاة، مثل أبي عبيد الثقفي ـ قائد من قوّاد المسلمين في حربهم مع الفرس ـ أحضر إليه زعماء الفرس هديّة فيها أنواع أطعمة فارس من الألوان والأخبصة وغيرها، فقالوا: هذه كرامة أكرمناك بها، وقِرًى لك!
قال: أكرمتم الجُنْد وقرَيتموهم مثله؟
قالوا: لم يتيسَّر، ونحن فاعلون.
فقال أبو عبيد: فلا حاجة لنا فيما لا يَسَعُ الجُند، فردَّه.
كذلك أحضر له جماعة أخرى مثل الجماعة الأولى، فقال لهم: أأكرمتم الجُند بمثله وقرَيْتموهم؟
قالوا: لا.

١٣٨ــ أبو علي القالي، الأمالي، ج ٢، ص ٨٢؛ ابن قتيبة، عيون الأخبار، ج ١، ص ٥٥.

فردَّه، وقال: لا حاجة لنا فيه، بئس المرء أبو عبيد إن صحب قوماً من بلادهم، أهراقوا دماءهم دونه، أو لم يهريقوا، فاستأثر عليهم بشيء يصيبه! لا والله! لا يأكل ممّا أفاء الله عليهم إلاّ مثل ما يأكل أوساطهم.[١٣٩]

أبو عبيد الثقفي هذا الذي رفض أن يأكل الطعام الطيب الذي أتحفه به الفُرْس لأنّه لم يُرد أن يستأثر على الجُنْد بشيء، آثر جيش المسلمين على نفسه وضحّى بحياته من أجل الحفاظ على أرواح جنوده.

إنّ الفُرْس لم يُهْدوا للجنود المسلمين طعاماً طيِّباً، فأهداهم أبو عبيد حياته في معركة الجِسْر عندما واثب الفيل الأبيض الذي كان أمام جيش الفرس وأخاف خيل المسلمين، فتراجعت أمامه، أهوى الفيل لأبي عبيد، فنفح مِشْفَره بالسيف[١٤٠]، فاتَّقاه الفيل بيده، وأبو عبيد ممسك به، فأصابه بيده، فوقع، فخبطه الفيل، وقام عليه، فقتله.[١٤١]

رحم اللهُ أبا عبيد، ورحم أمثاله من قُوّاد المسلمين الذين لم يبخلوا بأرواحهم على جنودهم، هؤلاء القُوّاد الذين كان شعارهم في المعركة: "إتبعوني أيّها الجنود"، وليس "إلى الأمام أيُّها الجنود وأنا وراءكم"، فقاتلوا أمامهم وليس خلفهم حتى نالوا الشهادة في حَوْمة الميدان.

هذا غَيْض من فَيْض من سيرة الخليفتين الراشدَيْن، أبي بكر الصدِّيق وعمر الفاروق رضي الله عنهما وأرضاهما، اللّذيْن عملا بسنّة رسول الله صلّى الله عليه وسلّم حتى أصبحا حُجَّة من الله على الناس في أنّه بمقدورهم العمل بسُنَّة الرسول صلّى الله عليه وسلّم، كما روي عن عطاء، قال: "مِنْ حُجَّةِ الله على النّاس اسْتِخْلافُ أبي بَكْرٍ وَعُمَرَ، أنْ يَقولَ قائِلٌ: مَنْ يَسْتَطيعُ أنْ يَعْمَلَ بعَمَلِ رسول الله صلّى الله عليه وَسَلَّمَ.[١٤٢]

١٣٩ــ الطبري، تاريخ، م ٣، ص ٤٥٢.

١٤٠ــ أي قطع خرطومه بالسيف.

١٤١ــ الطبري، تاريخ، م ٣، ص ٤٥٧.

١٤٢ــ ابن عساكر، مختصر تاريخ دمشق، ج ١٨، ص ٣١٣.

النَّصيحة الصّادقة

لقد عرف الخليفتان الراشدان، أبو بكر وعمر رضي الله عنهما، ما لهما من حقوق وما عليهما من واجبات، وما للأمّة وما عليها، وأعطيا حقّ الرقابة والتقويم للأمّة، أي أنّه من واجب الأمّة الإسلاميّة أن تراقب حُكّامها، وتعينهم على الحكم بالعدل عن طريق النصيحة الصادقة.

إنّ النصيحة للمسلمين وللخلائق أجمعين هي من سُنَن المرسلين، قال الله تعالى إخباراً عن نوح عليه السلام: (وَلا يَنْفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنْصَحَ لَكُمْ إِنْ كَانَ اللهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ.) (هود ٣٤/١١)

وقال سبحانه وتعالى إخباراً عن شعيب عليه السلام: (وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ آسَى على قَوْمٍ كافِرِينَ.) (الأعراف ٩٣/٧)

وقال سبحانه وتعالى إخباراً عن صالح عليه السلام: (وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَكِنْ لا تُحِبُّونَ النّاصِحِينَ.) (الأعراف ٧٩/٧)

وروي عن أبي هريرة، أنّ النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم قال: (إنَّ الدِّينَ النَّصِيحَةُ، إنَّ الدِّينَ النَّصِيحَةُ، إنَّ الدِّينَ النَّصِيحَةُ، قالوا: لِمَنْ يا رسول الله؟ قال: للهِ، وَلِكِتابِهِ، وَلِرَسُولِهِ، وَلأئِمَّةِ المُسْلِمِينَ، وَلِعامَّتِهِمْ.)

فالنصح لله هو وَصْفُه بما هو أهله وتنزيهه عمّا ليس له بأهل، والقيام بتعظيمه والخضوع له ظاهراً وباطناً، والرّغبة في مَحابِّهِ، والبعد عن مَساخِطِهِ، ومُوالاة من أطاعه، ومعاداة من عصاه، والجهاد في ردّ العُصاة إلى طاعته قَوْلاً وفِعْلاً.

والنصيحة لكتابه، إقامته في التلاوة وتحسينه عند القراءة وتَفهُّم ما فيه، والذَّبُّ عنه من تأويل المحرِّفين وطعن الطاعنين، وتعليم ما فيه للخلائق أجمعين. قال الله تعالى: (كِتابٌ أَنْزَلْناهُ إِلَيْكَ مُبارَكٌ لِيَدَّبَّروا آياتِهِ وَلِيَذَّكَّرَ أولُوا الأَلْبابِ.) (ص ٣٩/٣٨)

والنصيحة للرسول الكريم عليه السلام، إحياء سُنَّته بالطلب لها، وإحياء طريقته في بثّ الدّعوة وتأليف الكلمة، والتخلُّق بالأخلاق الطاهرة.
والنصيحة للأئمّة، معاونتهم على ما كُلِّفوا القيام به بتنبيههم عند الغفلة، وإرشادهم عند الهفوة، وتعليمهم ما جهلوا، وتحذيرهم ممّن يريد بهم السّوء، وإعلامهم بأخلاق عُمّالهم وسيرتهم في الرعيّة، وسَدِّ خَلَّتهم عند الحاجة، وردّ القلوب النافرة إليهم.
والنصيحة لعامّة المسلمين، الشفقة عليهم، وتوقير كبيرهم، والرحمة لصغيرهم، وتفريج كُرَبهم، وتَوَقّي ما يشغل خواطرهم، ويفتح باب الوسواس عليهم."[١٤٣]
وروي عن حذيفة بن اليمان رضي الله عنه، قال: قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: (مَنْ لا يَهْتَمُّ بأَمْرِ المُسْلِمينَ فَلَيْسَ مِنْهُمْ، وَمَنْ لَم يُصْبِحْ وَيُمْسِ ناصِحاً للهِ، ولِرَسولِهِ، وَلِكِتابِهِ، وَلإمامِهِ، وَلِعامَّةِ المُسْلِمينَ، فَلَيْسَ مِنْهُمْ.)[١٤٤]

وهذا رسول الله صلّى الله عليه وسلّم كان يسمر عند أبي بكر الليلة كذلك في الأمر من أمور المسلمين.[١٤٥]
قال الحسن [بن علي بن أبي طالب]: سألت أبي عن دُخول رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، فقال: كان دُخوله لنفسه، مأذون له في ذلك. وكان إذا أوَى إلى منزله جَزَّأ دخوله ثلاثة أجزاء: جزءً لله، وجُزءً لأهله، وجُزءً لنفسه.
ثمّ جزَّأ جُزأه بين الناس، فرَدَّ ذلك على العامَّة والخاصّة، لا يَدَّخِر عنهم شيئاً.

وكان من سيرته في جُزء الأمَّة، إيثار أهل الفضل بأدبه، وقسَّمَه على قدر فضلهم في الدِّين، فمنهم ذو الحاجة، ومنهم ذو الحاجتين، ومنهم ذو الحوائج، فيتشاغل بهم، ويشغلهم فيما أصلحهم والأمَّة، من مسألته عنهم وأخبارهم بالّذي ينبغي، ويقول: لِيُبَلِّغ الشّاهِدُ الْغائِبَ! وَأَبْلِغُونِي حاجَةَ مَنْ لا يَسْتَطِيعُ إبْلاغِي حَاجَتَهُ، فَإِنَّهُ

١٤٣ــ الأبشيهي، المستطرف في كل فن مستظرف، ج ١،ص ٧٦؛ روى الحديث الشريف، مسلم؛ والنسائي؛ وأبو داوود؛ والترمذي؛ أنظر المنذري، الترغيب والترهيب، ج ٢، ص ٥٧٦.
١٤٤ــ رواه الطبراني من رواية عبد اللّه بن جعفر؛ أنظر المنذري، الترغيب والترهيب، ح ٢، ص ٥٧٧.
١٤٥ــ الذّهبي، سِيَر أعلام النبلاء، م ١، ص ٤٧٦.

مَنْ بَلَّغَ سُلْطاناً حاجَةَ مَنْ لا يَسْتَطِيعُ إبْلاغَها إيَّاهُ، ثَبَّتَ اللهُ قدَمَيْهِ يَوْمَ الْقِيامَةِ، لا يُذْكَرُ عِنْدَهُ إلاّ ذلِكَ، وَلا يُقْبَلُ مِنْ أحَدٍ غَيْرُهُ، يَدْخُلُونَ عَلَيْهِ زُوَّاراً، وَلا يَفْتَرِقُونَ إلاّ ذَوَاقٍ - وفي رواية: وَلا يَفْتَرِقُونَ إلاّ عَنْ ذَوْقٍ، وَيَخْرُجُونَ أدِلَّةً (يعني فُقهاء)
قال [الحسن]: وسألته عن مخرجه، كيف كان يصنع فيه؟
فقال [عليّ]: كان رسول الله يَخْزِن لسانَه إلاّ بما يُعِينُهُم، ويُؤَلِّفُهم، ولا يُنَفِّرُهم، ويُكْرِمُ كريم كلّ قوم، ويُوَلِّيه عليهم، ويَحْذَرُ النّاسَ، ويَحْتَرِس منهم، من غير أن يَطْوِي عن أحد منهم بِشْرَه، ولا خاتمه، يتفقّد أصحابه، ويسأل النّاس عمّا في النّاس، ويُحَسِّنُ الحَسَنَ ويُقوِّيه، ويُقَبِّحُ القبيحَ ويُوَهِّيه، معتدل الأمر، غير مختلف، ولا يغفل مخافة أن يَغْفلوا، أو يَمِيلوا، لكلّ حالٍ عنده عَتاد، لا يُقصِّر عن الحقِّ، ولا يُجَوِّزه. ألّذين يَلُونَهُ من الناس خيارهم، أفضلهم عنده، أعَمُّهُم نصيحة، وأعظمهم عنده منزلة، أحسنهم مُواساة ومُؤازَرَة."[١٤٦]

وبهذه النصيحة الصادقة الهادئة، أوصى الحقُّ سبحانه وتعالى موسى وهارون عندما أرسلهما إلى فرعون الطاغية ليردّاه إلى سواء السبيل: (إذْهَبا إلى فِرْعَوْنَ إنَّهُ طغى، فقُولا لهُ قوْلاً ليِّناً لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أوْ يَخْشَى.) (طه ٢٠/٤٢-٤٣)
أنظروا إلى قول الحقِّ سبحانه لموسى وهارون: "فقولا له قولاً ليِّنًا." إنه لم يقل لهما: "أهجما عليه بالعصا وكَسِّرا رَأسه، أو أوسعاه سَبًّا وشتمًا وتقريعًا وتكفيرًا." اتعظوا أيها الوُعَّاظ والأئِمَّة بقول الله سبحانه وتعالى، وكونوا لطفاء في وعظكم وكلامكم مع الناس.

من هذه الآية الكريمة نفهم أنّ النصيحة لا تكون بالسباب والتشهير أو التهديد أو القتل.
وقال أبو سليمان [الداراني]: "مَنْ وَعَظَ أخاهُ فيما بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ، فهي نَصِيحَةٌ، وَمَنْ وَعَظَهُ على رُؤوسِ الْخَلائِقِ، فإنَّما يَرِيدُ الشُّنْعَةَ."[١٤٧]

---

[١٤٦] ـــ أبو يوسف يعقوب بن سفيان الفسوي، كتاب المعرفة والتاريخ، تحقيق أكرم ضياء العمري، مطبعة الإرشاد، بغداد، ١٣٩٦هـ ـــ ١٩٧٦م، م ٣، ص ص ٢٨٥-٢٨٦.

[١٤٧] ـــ ابن عساكر، مختصر تاريخ دمشق، ج ٣، ص ٣٠٣.

وليس كل فرد من أفراد الأمّة لديه الكفاءة أن ينصح أو يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، كما رُويَ عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما، أنّه جاءه رجل، فقال: يا ابن عباس! إنّي أريد أن آمُرَ بالمعروف وأنهى عن المنكر.

قال: أوَ بلغت ذلك؟

قال: أرجو.

قال: فإن لم تَخْشَ أن تُفْتَضَح بثلاثة أحرف في كتاب الله عزَّ وجَلَّ فافعل!

قال: وما هُنَّ؟

قال: قوله عَزَّ وجَلَّ: أَتَأمُرونَ النّاسَ بالبرِّ وَتَنْسَوْنَ أنْفُسَكُمْ. (البقرة ٤٤/٢)

أحْكَمْتَ هذه الآية؟

قال: لا. قال: فالحرف الثاني؟

قال: قوله عَزَّ وجَلَّ: لِمَ تَقُولُونَ ما لا تَفْعَلُونَ؟ (الصّف ٢/٦١).

أحْكَمْتَ هذه الآية؟

قال: لا. قال: فالحرف الثالث؟

قال: قول العبد الصالح شعيب، على نبيِّنا وعليه الصلاة والسلام: وَما أُريدُ أنْ أُخالِفَكُمْ إلى ما أنْهاكُمْ عَنْهُ. (هود ٨/١١).

أحْكَمْتَ هذه الآية؟

قال: لا.

قال: فابْدَأ بنفسك![١٤٨]

ولنستمع إلى النصيحة الهادئة والمُؤَثِّرة التي نصحها عمرو بن عُبَيْد للمنصور الخليفة العباسي.

"لمّا بايع المنصورُ للمهدي، كتب إلى عمرو بن عبيد كتاباً لطيفاً يستزيره، وفيه كتب إلى عامله على البصرة في إشخاصه مكرَّماً، فلمّا صار إليه بالكوفة ودخل عليه، استدناه، وقال: كيف كنت بعدي أبا عثمان؟ فقال: أحمد الله وأذمّ عملي، فتغرغرت عينا المنصور، ثمّ قال له: عِظْني يا أبا عثمان! فقال: يا أمير المؤمنين!

١٤٨ــ ابن عساكر، مختصر تاريخ دمشق، م ١٠، ص ٣١٢.

إنّ الله أعطاك الدنيا بأسرها، فاشتر نفسك منه ببعضها، واعلم أنّ الأمر الذي صار إليك لو بقي لمن قبلك لم يصل إليك، واعلم أنّك لست أوّل خليفة تموت، فاحذر يا أمير المؤمنين ليلة صبيحتها القيامة، ليلة تتمخَّض بيوم الفزع الأكبر، إنّ الله يقول: أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بعادٍ إرَمَ ذاتِ العِمادِ... إلى قوله: إنَّ رَبَّكَ لَبالمِرْصاد. (الفجر ٨٩/٦-١٤)

ثمّ قال: هذا تخويف لمن سلك جادَّتهم واتَّبع آثارهم.

فبكى المنصور، ونزل عن فرشه، ثمّ سكن. فقال: يا أبا عثمان ناولني الدّواة! فأبى أن يناوله، فقال: أقسمت لتفعلنَّ! فقال: والله لا ناولتك إيّاها. فقال له المهديّ، وكان حاضراً: يَحلف عليك أمير المؤمنين فترادّه باليمين! فقال: إنّ أمير المؤمنين أقدر على الكفّارة منّي، ثم قال: من هذا الفتى يا أمير المؤمنين؟ قال: هذا ابن أخيك، هذا محمد المهدي، وليّ عهد المسلمين. فقال: أرى شباباً وجمالاً ونشاطاً، وقد رشّحته لأمر يصير إليه إن صار وأنت عنه في شغل وقد وطّأت له الدنيا وأنت منتقل عنها إلى الآخرة، فهناك الحساب، إنّ الله قد جعلك فوق كلّ أحد، فلا ترضى أن يكون فوقك في طاعته أحد. ثمّ سكت عمرو، فقال المنصور: سَلني حوائجك! فقال: حاجتي أن لا تبعث إليّ حتى أجيئك، ولا تعطني شيئاً حتى أسألك، ثمّ نفض ثوبه وقام، فأتبعه المنصور بصره، وقال: شُغِلَ واللهِ الرجل بما هو فيه عمّا نحن فيه، وقال:

كُلُّكُمْ طالِبُ صَيْد وَهْوَ ذو يَمْشي رُوَيْد

غير عمرو بن عبيد"[١٤٩]

وعملاً بقول الله سبحانه وتعالى، وقول رسوله الكريم صلّى الله عليه وسلّم راقبت الأمّةُ حكّامَها، ووقفت لهم على كلّ كبيرة وصغيرة، أيام أبي بكر، وعمر، وعثمان، وعلي، ومعاوية.

١٤٩ــ البلاذري، أنساب الأشراف، القسم الثالث، تحقيق عبد العزيز الدوري، ص ص ٢٣١-٢٣٢

ومثال على هذه المراقبة الشعبية للخليفة، ما رُويَ: "أنّه أرْسِلَ إلى عمر بن الخطاب حُلّ، فقسمها، فأصاب كلَّ رجلٍ ثوب، ثم صعد [عمر] المنبر وعليه حُلَّة، والحُلَّة ثوْبان، فقال: أيُّها الناس! ألا تسمعون؟

فقال سلمان [ابن الإسلام]: لا نسمع!

فقال عمر: ولِمَ يا أبا عبد الله؟

قال سلمان: لأنّك قسمت علينا ثوباً ثوباً، وعليك حُلَّة.

فقال عمر: لا تعجل يا أبا عبد الله! ثمّ نادى: يا عبد الله! فلم يجب أحد، فقال: يا عبد الله بن عمر!

فقال عبد الله: لَبَّيْكَ يا أمير المؤمنين!

قال عمر: نَشَدتك الله! الثوب الذي ائتزرتُ به، أهو ثوبك؟

قال عبد الله: اللّهمّ! نعم.

فقال سلمان: أمّا الآن، فقُلْ نسمع.[١٥٠]

مرّة أخرى نرى امرأة تصدَّت لعمر رضي الله عنه مدافعة عن حقوق النساء في المَهْر، ورجع عمر إلى قولها.

"رُويَ، أنّ عمر بن الخطاب رضي الله عنه قام خطيباً، فقال: أيَّها النّاس! لا تغالوا (في) مُهور النساء! فلو كانت مكرمة في الدنيا أو تقوى عند الله، لكان أوْلاكم بها رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، ما أصْدَقَ امرأةً من نسائه أكثر من اثنتي عشرة أوقيّة.

فقامت إليه امرأة، فقالت: يا أمير المؤمنين! لِمَ تمنعنا حقّاً جعله اللهُ لنا؟ والله يقول: "وَآتَيْتُمْ إحْداهُنَّ قِنْطاراً." (النساء ٤/٢٠)

قال عمر: كلُّ أحد أعلم من عمر. ثم قال لأصحابه: تسمعوني أقول مثل هذا فلا تنكرون حتى تَرُدَّ عليَّ امرأة ليست من أعلم النساء![١٥١]

١٥٠ــ ابن قتيبة، عيون الأخبار، م ١، ص ٥٥؛ الخزاعي، تخريج الدلالات السمعية

١٥١ــ الخزاعي، تخريج الدلالات السمعية، ص ص ٦١٧-٦١٨؛ القصة باختلاف في محاضرات الأدباء للراغب الأصفهاني، ١/٧٥.

لم يُعجب الخليفة عمرَ سكوتُ أصحابه عن قيامه بتشريع لا يتناسب مع قول الله تعالى في القرآن الكريم، حتى تردَّه إلى الصواب امرأة دون أن تخافه، لأنّها كانت تعرف أنّ الحقَّ أكبر من الخليفة، واعترف الخليفة عمر بهذه الحقيقة، فرجع إلى قولها.

إنّ الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه عدل وتواضع للهِ وقبل نصيحة أفراد الأمّة من رجال ونساء، وقنع وعَفَّ عن أموالهم، فها هو علي بن أبي طالب رضي الله عنه، يشهد لعمر بن الخطاب بالقناعة والعفَّة، مِمّا أثَّر في نفوس أفراد الرعيّة، فعَفُّوا بدَوْرهم عندما وقعت الغنائم من كنوز الفرس والروم بأيديهم، لمّا بعث سعد بن أبي وقاص غنائم الحرب التي غنمها المسلمون من الفرس ونظر عمر إليها، قال: إنّ قوْماً أدَّوْا هذا لأُمَناء.

فقال له علي بن أبي طالب: إنّكَ عَفَفْتَ، فعَفَّتْ رَعِيَّتُكَ، وَلَوْ رَتَعْتَ لَرَتَعُوا.[١٥٢]

ويحسُنُ في هذا المقام ذكر بعض فضائل عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه وعفَّته وتواضعه، وحسن تصرّفه مع أفراد الرعية، فها هو يخرج إلى السوق ليبيع سيفه ليشتري إزاراً يلبسه، وهو خليفة المسلمين وكنوز الأرض وأموالها تحت تصرُّفه.

"رُوِيَ عن مجمع بن سمعان التيمي، قال: خرج علي بن أبي طالب رضي اللّه عنه بسيفه إلى السوق، فقال: مَن يشتري منّي سيفي هذا؟ فلو كان عندي أربعة دراهم أشتري بها إزاراً ما بعته."[١٥٣]

يا للعجب! خليفة المسلمين لا يملك أربعة دراهم وقد فتح اللهُ الأرضَ على المسلمين بخيراتها وكنوزها، وكلّها كانت تحت تصرّفه في بيت مال المسلمين، فليقارن هذا بسلاطين المسلمين في هذا الزمان، سلاطين الدول الفقيرة، أصحاب الملايين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة المودعة في مصارف سويسرة، ولندن، وباريس، ونيويورك، وغيرها من بلاد الناس سوى بلادهم، فالغريب في نظرهم أولى بأموال المسلمين من المسلمين. وما اكتشف بعد سقوط الطاغيتين،

١٥٢ــ ابن كثير، البداية والنهاية، م ٤، ج ٧، ص ٦٩.

١٥٣ــ ابن كثير، البداية والنهاية، م ٤، ج ٧، ص ٤.

مبارك في مصر وابن علي في تونس من مليارات الدولارات المودعة في مصارف أوروبا وأميركا ليترك الحليم حيرانًا، ويذهل عقل كل عاقل.

وكان عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه يمشي في السوق، ويأمر الناس بتقوى الله، وحُسْن البيع، ويقول: لا تنفخوا اللحم![١٥٤]

وأتى أصحاب التمر يوماً، فإذا جارية تبكي، فقال: ما يبكيك؟ فقالت: باعني هذا الرجل تمراً بدرهم، فردَّه موالِيّ، فأبى أن يقبله. فقال عليّ: خذ تمرك، وأعطها درهماً! فإنّها ليس لها أمر. فدفعه البائع. فقيل له: أتدري من هذا؟ فقال: لا! فقيل: هذا عليّ بن أبي طالب، أمير المؤمنين.

فأخذ تمره، وأعطاها درهماً. ثم قال الرجل: أحِبُّ أن ترضى عنّي يا أمير المؤمنين!

قال: ما أرضاني عنك إذا أوفيت الناس حقوقهم!

ثمّ مرَّ مجتازاً بأصحاب التمر، فقال: يا أصحاب التمر! أطعموا المساكين يَرْبُ (يزيد) كسبكم.

ثمّ مرَّ مجتازاً ومعه المسلمون حتى انتهى إلى أصحاب السمك، فقال: لا يباع في سوقنا (سمك) طافٍ.

ثمّ أتى سوق الأقمشة، فأتى شيخاً، فقال: يا شيخ! أحسن بيعي في قميص بثلاثة دراهم. فلمّا عرفه، لم يشتر منه شيئاً، ثمّ آخر، فلمّا عرفه لم يشتر منه شيئاً. فأتى غلاماً حدثاً، فاشترى منه قميصاً بثلاثة دراهم. فجاء أبو الغلام صاحب الثوب، فقيل له: يا فلان! قد باع ابنك اليوم أمير المؤمنين قميصاً بثلاثة دراهم. قال: أفلا أخذت منه درهمين؟ فأخذ منه أبوه درهماً، ثمّ جاء به إلى أمير المؤمنين، وهو جالس مع المسلمين، فقال: أمسك هذا الدرهم! فقال: ما شأن هذا الدرهم؟

فقال: إنّما ثمن القميص درهمين.

فقال عليّ: باعني رضاي وأخذ رضاه.

١٥٤ــ ابن كثير، البداية والنهاية، م ٤، ج ٧، ص ٤.

كان عليّ رضي اللّه عنه يمشي في الأسواق وحده وهو خليفة، يرشد الضال، ويعين الضعيف، ويمرّ بالبيّاع والبقّال، فيفتح عليه القرآن ويقرأ: تِلْكَ الدّارُ الآخِرَةُ نَجْعَلُها لِلَّذِينَ لا يُرِيدُونَ عُلُوّاً فِي الأَرْضِ وَلا فَساداً وَالعاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ. (القصص ٨٣/٢٨). ثمّ يقول: نزلت هذه الآية في أهل العدل والتواضع من الوُلاة، وأهل القُدرة من سائر الناس.[١٥٥]

ولنستمعْ إلى شهادة شيخ الزهّاد من التابعين، الحسن البصري، في عليّ رضي الله عنه.

قال هشام بن حسّان: "بينما نحن عند الحسن البصري، إذ أقبل رجل من الخوارج، فقال: يا أبا سعيد! ما تقول في عليّ بن أبي طالب؟

فاحمرّت وَجْنَتا الحسن، وقال: رحم اللهُ عليّاً، إنّ عليّاً كان سَهْماً لله صائباً في أعدائه، وكان في مَحَلّة العلم أشرفها وأقربها إلى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، وكان رهْبانيّ هذه الأمّة، لم يكن لمال الله بالسَّروقة، ولا في أمر الله بالنُّوَمَة، أعطى القرآن عزائمه وعمله وعلمه، فكان منه في رياض مُونِقة، وأعلام بيِّنة. ذاك عليّ بن أبي طالب، يا لُكَع."[١٥٦]

وهل تعجبون أيّها الناس إذا نجحت وسادت أمَّةٌ قادتها مثل هؤلاء؟

وهذا سعد بن أبي وقاص، الصحابي الجليل، وبطل القادسية، لا ينتقم لنفسه ممّن شكَوْه إلى الخليفة زوراً وبهتاناً حتى عزله عن عمله. لم ينتقم سعد لنفسه خوفاً من أن يخاف الناس أن يَشْكوا أمراءهم وولاتهم إلى الخلفاء، رُوي: "أنّ أهل الكوفة شَكَوْا سعد بن أبي وقاص إلى عمر، فعزله عن ولاية الكوفة، واستمرَّ سعد معزولاً من غير عجز ولا خيانة، ويهدِّد أولئك النفر، وكاد يوقع بهم بأساً، ثمَّ ترك ذلك خوفاً من أن لا يشكو أحد أميراً."[١٥٧]

١٥٥ــ ابن كثير، البداية والنهاية، م ٤، ج ٧، ص ٤ــ٦.

١٥٦ــ اللكع = اللئيم والأحمق. ابن كثير، البداية والنهاية، م ٤، ج ٧، ص ٦.

١٥٧ــ ابن كثير، البداية والنهاية، م ٤، ج ٧، ص ١٠٨.

وهذا هو الصحابي الجليل، أبو ذر الغفاري، يغلظ القول للخليفة معاوية بن أبي سفيان، فماذا عمل معاوية معه؟ لم يقتله، ولم يسجنه، بل شكاه إلى بعض الصحابة، مثل: عبادة بن الصامت، وأبو الدرداء، وعمرو بن العاص، وأم حرام بنت ملحان.[١٥٨]

ألا تعجبون من خليفة يشكو مواطناً إلى جماعة من المواطنين ليسكتوه عنه! رحم الله أبا ذرّ إذ لو أنّه عاش في هذه الأيام العجاف تحت حكم سلاطين المسلمين "الملهمين" الّذين لا يستطيع أي مواطن كائناً من كان أن يعترض على تصرّفاتهم مهما رَذُلَتْ، لذاق وبال أمر تغليظه وتشديده النكير على الحكّام، لكنّه عاش في أيّام معاوية الذي قال: "لو كان بيني وبين الناس شعرة ما انقطعت.

فقيل له: وكيف؟

قال: لأنّهم إنْ شَدّوها خَلَّيتها، وإنْ خَلّوا شَدَدتُها."[١٥٩]

معاوية هذا ساس الناس باللين، وقلّما كان يلجأ للعنف، حيث قال: "لا أضَعُ سيفي حيث يكفيني سَوْطي، ولا أضَعُ سَوْطي حيث يكفيني لساني، ولو أنَّ بيني وبين الناس شعرة ما انقطعت. قيل: وكيف ذاك؟ قال: كنت إذا مدّوها خَلَّيْتها، وإذا خَلَّوْها مَدَدتها."[١٦٠]

وقال معاوية مرَّة لزياد بن أبي سفيان: "أنا أسْوَسُ منك، ضَبَطتَ سلطانَك بالشدّة، وأنا ضبطتُ سلطاني باللّين."[١٦١]

ولننظر إلى معاوية (صاحب الشَّعرة) كيف ناقش المِسْوَر بن مَخْرَمة نقاشاً هادئاً عندما وفد عليه وأسمعه كلّ قبيح، كما روى محمد بن شهاب الزهري بسنده عن المِسْوَر بن مخرمة، أنّه وفد على معاوية، قال، فلمّا دخلت عليه، سلّمت ، قال: ما فعل طعنك على الأئمّة يا مِسْوَر؟

قلت: ارفضنا من هذا، أو أحسن فيما قدمنا له!

١٥٨ــ رواه أحمد بن حنبل، أنظر أبو بكر الهيثمي، المجمع، ج ٨، ص ص ٨٤-٨٥.

١٥٩ــ ابن حبّان، روضة العقلاء، ص ٧٢.

١٦٠ــ ابن قتيبة، عيون الأخبار، ج ١، ص ٩.

١٦١ــ أبو هلال العسكري، الأوائل، ج ٢، ص ٤٢.

قال: ولله! لتكلّمنّ بذات نفسك!

قال: فلم أدَع شيئاً أعيبه به إلاّ أخبرته به.

قال: لا أبرأ من الذّنوب، فما لك ذنوب تخاف أن تهلكك إن لم يغفرها الله لك؟

فقلت: بلى. قال: فما جعلك أحقَّ بأن ترجو المغفرة منّي؟ فوالله لما ألِي من الإصلاح بين الناس، وإقامة الحدود، والجهاد في سبيل الله، والأمور العظام التي لست أحصيها ولا تحصيها أكثر ممّا تَلِي، وإنّي لعلى دين يقبل الله فيه الحسنات، ويعفو فيه عن السّيِّئات، واللهِ مع ذلك ما كنت لأُخَيَّر بين الله تعالى وما سِواه، إلاّ اخترت الله تعالى على ما سِواه.

قال مِسْوَر: ففكّرت حين قال لي ما قال، فعرفت أنّه خصمني.

فكان إذا ذكره بعد ذلك دعا له بخير.[١٦٢]

معاوية بن أبي سفيان كان يقبل النصح من كلّ من قدّمه إليه، ولم يُسْمَع عنه أنّه عاقب أحداً على نصيحته، كما فعل من جاء بعده من السلاطين.

لنستمع إلى ردّ معاوية على الأحنف بن قيس الّذي استشاره معاوية في استخلاف يزيد، فسكت عنه.

فقال: ما لك لا تقول؟

فقال الأحنف: إنْ صَدَقناك أسخطناك، وإنْ كَذَبْناك أسخطنا الله، فسُخْط أمير المؤمنين أهْوَن علينا من سُخْط الله.

فقال له معاوية: صدقت.[١٦٣]

وكتب أبو الدّرْداء إلى معاوية: أمّا بعد! فإنّه من يلتمس رضا الله بسُخْط الناس كفاه اللهُ مَؤونة الناس، ومن التمس رضا النّاس بسُخْط الله وَكَلَهُ اللهُ إلى النّاس.

وكتبت عائشة أمّ المؤمنين رضي الله عنها إلى معاوية: أمّا بعد! فإنّه من يعمل بمساخط الله يَصِرْ حامِدُهُ من الناس ذامًّا له، والسلام.[١٦٤]

١٦٢ــ الصنعاني، المصنّف، م١١، ص ٣٤٤-٣٤٥؛ الخزاعي، تخريج الدّلالات السمعيّة، ص ١٧٣-١٧٤.

١٦٣ــ العقد الفريد، م ١، ص ٥٩.

وفي رواية أخرى عن عروة بن الزبير، عن عائشة رضي الله عنها، أنّها كتبت إلى معاوية بن أبي سفيان: "إنّك إن اتَّقيت الله عزَّ وجَلَّ، كفاك، وإن اتَّقيت الناس لم يُغْنوا عنك من الله شيئاً، فاتَّق اللهَ!"[١٦٥]

وبناء على الآية الكريمة في سورة طه، والتي ذكرناها في أوّل هذا الفصل، حَجَّ هارونُ الرشيدُ الخليفةُ العباسيُّ رجلاً أراد أن ينصحه ويغلظ له في القول.
"يُروى أنَّ رجلاً قال للرشيد: إنّي أريد أن أعظك وأغلِظ لك في القول.
فقال الرشيد: يا هذا! ليس ذاك لك، قد بعث الله من هو خير منك إلى من هو شرٌّ منّي، فأمره أن يقول له قوْلاً ليِّناً."[١٦٦]
يبدو أنّ هارون الرشيد هذا كان يقبل النصيحة إذا كانت بالسّرِّ بينه وبين الناصح، ولا يقبلها علانية على رؤوس الأشهاد، كما فعل بالرجل الّذي قام إليه وهو يخطب بمكّة، فقال: كَبُرَ مَقْتاً عِنْدَ اللهِ أنْ تَقولوا ما لا تَفْعَلونَ. فأمر به فضُرِبَ مائة سوط، فكان يَئِنُّ من اللّيل كلّه ويقول: الموت! الموت! فأُخبرَ هارون الرشيد أنّه رجل صالح، فأرسل إليه يستحلُّه، فأحَلَّه.[١٦٧]
ولعلّ هارون الرشيد كان على علم بقول ابن عبّاس، جدّه الأكبر، لمّا سأله رجل: "آمر أميري بالمعروف؟
قال: إن خِفْتَ أن يقتلك فلا تُؤَنِّب الإمام، فإن كنت لا بُدَّ فاعلاً فيما بينك وبينه."[١٦٨]

وقبْلَ هارون الرشيد، ارتكب الوليد بن عبد الملك، الخليفة الأموي، جُرماً أكبر من جُرم الرشيد مع الرجل الصالح، إذ أمر الوليد بن عبد الملك بقتل الرجل الّذي ذكّره بتأخير الصلاة، كما روى المدائني، قال: جلس الوليد بن عبد الملك على المِنْبَر

١٦٤ــ العقد الفريد، م ١، ص ٥٩.
١٦٥ــ الفسوي، كتاب المعرفة والتاريخ، م ١، ص ٥٥٠.
١٦٦ــ المبرّد، الفاضل، ص ٩٤؛ القصة بزيادة واختلاف تنسب الى المأمون عند ابن عبد ربّه في العقد الفريد، م ١، ص ٥٧.
١٦٧ــ ابن عبد ربّه، العقد الفريد، م ١، ص ٥٣.
١٦٨ــ ابن أبي شيبة، المصنف، ج ٧، ص ٤٧٠، حديث ٣٧٣٠٧.

يوم الجمعة حتّى اصفرَّت الشمس، فقام إليه رجل، فقال: يا أمير المؤمنين! إنَّ الوقت لا ينتظرك، وإنَّ الرَّبَّ لا يعذرك. قال: صدقت! ومَن قال مثل مقالتك، فلا ينبغي له أن يقوم مثلَ مقامك. مَنْ ها هنا من أقرب الحرس يقوم إليه فيضرب عنقه؟[١٦٩]

وهذا ما توقعه أبو بكر الصدّيق رضي الله عنه للمرأة التي سألته: "ما بقاؤنا على هذا الأمر الصالح الّذي جاء الله به بعد الجاهليّة؟

قال: بقاؤكم عليه ما استقامت أئمَّتكم.

قالت: وما الأئمَّة؟

قال: أوَما كان لقومكِ رؤوس وأشراف يأمرونهم، فيطيعونهم؟

قالت: بلَى!

قال: فهم أولئك النّاس."[١٧٠]

كذلك الصحابي الجليل، عبد الله [بن مسعود]، توقَّع ما توقَّعه أبو بكر الصِّدِّيق رضي الله عنه، كما روى عبد الرحمن بن بشر، قال: جاء رجل إلى عبد الله، فقال: متى أضِلُّ؟ فقال: إذا كان عليك أمَراء، إن أطعتهم أضَلُّوكَ، وإنْ عَصَيْتَهُم قتَلُوكَ."[١٧١]

هكذا استبدَّ الحكّام والسلاطين، ولم يسمحوا لأحد أن ينصحهم أو يعظهم، واستكانت الأمّة لظلمهم وطغيانهم.

وأصبح الوقوف في وجه الحكّام الظلمة أمراً فرديًّا، أي صار "فرض كفاية" وليس "فرض عين" إذا قام به البعض سقط عن الكلّ، فصار بعض الأفراد يقفون في وجه الحاكم، فيبطش ذلك الحاكم بهم كما قدّمنا قبل قليل، فيخاف باقي الأمّة، وبقي الأمر هكذا إلى يومنا هذا، ولم يتطوّر الأمر إلى حركة شعبيّة تخيف الحاكم الظالم وتوقفه عند حدّه، والمعارض للحاكم كان ومازال ينال جزاءه أو عقابه

١٦٩ــ ابن عبد ربّه، العقد الفريد، ج ١، ص ٥٣.

١٧٠ــ السيوطي، تاريخ الخلفاء، ص ٩٣.

١٧١ــ ابن أبي شيبة، المصنف، ج ٧، ص ٤٦١، حديث ٣٧٢٣٤.

حسب عقلية وطبع الحاكم. وعندما تتغيّر الرعية يتغيّر الحاكم، لأنّه إذا صارت الرعيّة تُزيِّن للحاكم سوءَ عمله، تأخذه العزّة بالإثم ويتصرّف معهم تصرُّفاً مطلقاً، كما يُستدلّ من حديث الوليد بن عبد الملك الخليفة الأموي مع الزهري.

"دخل الزُّهْريُّ على الوليد بن عبد الملك، فقال له الوليد: ما حديث يحدِّثنا به أهلُ الشام؟ قال: يُحَدِّثوننا أنّ الله إذا استرعى عبداً رَعِيَّته كتب له الحسنات ولم يكتب له السّيِّئات.

قال الزهري: باطلٌ يا أمير المؤمنين، أنَبيٌّ خليفة أكرم على الله أم خليفة غير نَبيّ؟

قال: بل نبيّ خليفة.

قال: فإنّ الله تعالى يقول لنبيِّه داوود: "يا داوودُ إنّا جَعَلْناكَ خَلِيفَةً في الأرْضِ فاحْكُمْ بَيْنَ النّاس بالحَقِّ وَلا تَتَّبِع الهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبيلِ الله. إنَّ الّذينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبيلِ اللهِ لَهُمْ عَذابٌ شَديدٌ بِما نَسُوا يَوْمَ الحِسابِ." فهذا وعيد يا أمير المؤمنين لنبيٍّ خليفة، فما ظنّك بخليفة غير نبيّ؟

قال: إنّ النّاس ليُغْووننا عن ديننا."[١٧٢]

١٧٢ــ ابن عبد ربه، العقد الفريد، م ١، ص ٦٠.